فى
رحاب السيرة

تأليف

محمد عبد الرحمن عبد اللطيف

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلعَظِيمُ

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وصلواته وسلامه على سيدنا رسول الله ، محمد بن عبد الله ، خاتم المرسلين ، وإمام النبيين ، أقام الله به الحجة ، وهدى إلى المحجة ، ورضى الله عن صحابته أجمعين ، ومن تبع هداهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فمع دورة الفلك مشرقة بذكرى مولد الرسول الكريم ، تفيض خواطر الباحثين والكتاب مستلهمة تلك الذكرى العطرة فتحلق فى الآفاق الرحاب للرسالة والرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ومن حق الذكرى الجليلة على البشر فى مشرق الأرض ومغربها أن يتلقوها بما هى أهل له من الإجلال والإكبار ، فقبل مولد خاتم المرسلين كان العالم كله يرزح تحت أثقال العبودية فى شتى صورها ، وينوء بأوزار الاستغلال فى كل أبعاده ، ومع دعوة سيدنا محمد بن عبد الله

انداحت الأثقال ، وتحطمت الأغلال ، وعرف البشر طريقهم إلى حقوق الإنسان . حرية وعدالة ومساواة .

وإذا كانت هناك هيئات تزعم لنفسها ابتداع هذه الحقوق فإنا نؤكد وملء قلوبنا اليقين أنه ليست هناك وثيقة أكرم وأجل من تلك التى قدمها القرآن المجيد منذ أربعة عشر قرنا فى قول الله الصريح .

(يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَـٰكُمْ) . .

وقد أعلنها صلوات الله وسلامه عليه فى خطبة الوداع التى لايزال صداها يجلجل فى سمع الزمن : (أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى) .

وإذا كان من حق الذكرى الجليلة على البشر فى مشرق الأرض ومغربها أن يتلقوها بما هى أهل له من الإجلال والإكبار ، فأحرى بالمسلمين أن يكونوا على مستوى الذكرى ابتهاجا فى السلوك ، وتطبيقا فى شئون الحياة ، حتى يكونوا النموذج والمثال ، وأحرى بالشاردين منهم أن يثوبوا إلى الرشاد ، ففى الإسلام عقيدة وشريعة خير مايربى الحياة ويثريها .

وكتاب (فى رحاب السيرة) لمؤلفه الأستاذ محمد عبد الرحمن عبداللطيف تحويمات فى الآفاق الرحاب للسيرة النبوية الشريفة ، وللذكرى

العطرة تحية ووفاء : وهدهدة مشاعر علها توقظ الغافلين ، وتزيد المؤمنين إيماناً .

وصدق الحق جل وعلا إذ يقول :

(وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) .

أعاد الله أمثال هذه الذكرى على المسلمين بالخير العميم والنصر المؤزر .

والله الموفق والهادى إلى أقوم سبيل .

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

رأى

قال تعالى :

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)[1] .

إن محاولة إخضاع السيرة النبوية لأساليب التحليل والدراسة الحديثة ومناهج البحث المستوردة هي فى رأيى محاولات عقيمة من وجهة النظر الروحية التى يجب أن تقرأ بها السيرة .

فهذه الأساليب قد تجدى فى الموضوعات ذات الطابع المادى والبشرى ، أما والسيرة صاحبها نبى أرسله الله بخاتمة الديانات وجعله هاديا ومبشرا وسراجا منيرا فالأمر هنا يختلف كل الاختلاف ، فلا نستطيع أن نخضع أسلوب نبوة وعقيدة سماء إلى تحليل ودراسة علمية أشبه بتحليل ألوان الطيف وترتيبها ، أو أن نخضعها إلى منهج من مناهج البحث الحديثة .

---

(١) الآية ٢ من سورة محمد .

وهذا لايعنى أننا ندعو إلى التسليم المطلق بكل ماورد فى كتب السيرة دون تمحيص ودون روية .

ولكننى أريد أن أقول :

إن السيرة النبوية فيها مجالات كثيرة ، لا يمكن لبشر أن يضعها موضع البحث والتحليل ، أو يدرسها دراسة علمية تدعو إلى التساؤل والحيرة بين الأخذ بها أو رفضها .

لأننا فى مجال سيرة نبى ورسول ، ولسنا فى مجال الترجمة لقائد أوزعيم استحدث فكرة أو أتى بنظام جديد لأمته ، بحيث نسمح ونحن نبحث سيرته ونتعرض لأسلوب كفاحه أن نخضع فكرته ونظامه إلى مناهج البحث المختلفة .

المجال هنا بعيد جداً عن متناول أفكارنا البشرية . .

ويجب فى مثل هذه القضايا أن يكون الحذر رائدنا قبل أن نخط فى السيرة النبوية حرفا واحدا ، وإلا فسيكون نتاجنا أشبه شىء بنتاج المستشرقين الحاقدين :

وإنما مجال البحث والتحليل — ونحن نكتب السيرة مؤمنين بها — هو الموضوعات المادية والعلمية التى تخدم السيرة ولا تمسها :

وكمثال لذلك : زواج النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من واحدة .

فهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة علمية وطبية حديثة ، ندفع بها آراء المستشرقين فى هذه القضية ، لنثبت أسباب هذا الزواج الحقيقية ،

وأنه لدواعى دينية وسياسية واجتماعية ، ولم يكن أبدا لدواعى بدنية أوبشرية كما يحلو للبعض أن يعلل تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نخدم السيرة ولا نخدشها .

ونرد على آراء المستشرقين بدفاع علمى حديث .

وموضوع كالإسراء والمعراج .

موضوع دينى بحت ، لايمكن أن نخضعه لمناهج البحث العلمى .

ولكن نلمس زواياه الروحانية ، ونحاول أن نثبت عدم استحالة حدوثه ، ونخدم الواقعة ولانشك فيها ، وخاصة والإنسان نفسه بعلمه المادى دار حول الأرض ، وأرسل صواريخه تدور حول القمر وتصل إليه ، وأرسل سفن الفضاء ، التى يخرج ركابها فى الفضاء الكونى يسبحون فيه بأجسامهم ، ويشاهدون بعضا من آيات الله تعالى .

وجوانب العظمة النفسية والروحية فى حياة الرسول الكريم كثيرة ومتعددة تشهد بها مواقفه الكثيرة ، وتشهد بها آيات القرآن الكريم .

وفرق كبير بين أن تكتب وأنت مؤمن ، وبين أن تكتب وفحيح الشك يملأ قلمك بالهلع والذعر والتردد ، فالإيمان المطلق بسيرة النبى وجوانب عظمتها المتعددة هو المفتاح الحقيقى لتفهم السيرة وهضم العقيدة .

ودراسة السيرة تحتاج إلى دراسة القرآن الكريم أولا ، ثم دراسة الحديث النبوى ، ثم مطابقة كتب السيرة ، واستنباط ما أجمعت عليه مصادرها الصحيحة .

والقرآن رائدنا فى هذا المجال . . .

نجول مع آياته المحكمات لنرى إلى أى مدى سترتفع بنا وبسلوكنا إلى أرقى المعارج .

ولست أرى رأى البعض الذين يقفون فى بحثهم للسيرة عند المنهج العلمى البحت ، وبهذا تقتصر دراسة السيرة والتمتع بها على الخاصة وحدهم .

ومن هنا تحدث الجفوة بين الدين بمفاهيمه الصحيحة ومثله ومبادئه السامية وبين مانزاول فى حياتنا .

ومن هنا أيضا تكون سهولة التأثير بشطط الحديث والروايات والخرافات والانحرافات باسم الدين .

فهذا الجفاف فى تناول السيرة هو الذى دفعنى إلى نهج هذا الأسلوب الذى كتبت به هذا الكتاب .

وأوثق مصادر السيرة هو كتاب الله الكريم .

فإليه لجأت استعين بآياته ومواقف وأسباب النزول ، لتلهمنى وضوح الرؤية وجلاء البصيرة .

وتناول السيرة بالروحانية التى قد تبدو ساذجة فى نظر الكثيرين هى من أسباب إحيائها المستمر .

ذلك أن الدراسة العلمية الجافة تكون دائما بعيدة عن ذهن الكثيرين من أفراد القاعدة العريضة لأمة الإسلام .

وليس من المعقول ولامن المفروض أن يكون جميع المسلمين على درجة عالية من العلم والفقه ، بحيث يمكن لهم أن يغوصوا فى مطابقات الروايات والأحاديث .

فتناول السيرة بروحانية سهلة شفافة بعيدة عن تعقيدات العلم فى نفس الوقت الذى نحتفظ فيه بحقائق الرواية وحسن العرض هوإحياء رائع لهذه السيرة العطرة .

وينضوى تحت ذلك كل ماهو معروف بالقصص الدينى الوارد فى الكثير من كتب السيرة أوفى قصائد المديح النبوى .

فذلك فيه إحياء للسيرة بطريقة قد تلائم أمزجة الكثيرين من المسلمين.

وتساعد على استمرار الرواية ، هذا بجوار البحث المفصل لأصحاب الثقافات فى هذا المجال لكى تبقى حدود السيرة فى إطار روعتها .

وحصيلة ذلك إيمان كامل بهذه الصور المشرقة الجميلة الصافية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياته كانت صورة مشرقة للوجود كله . . .

أما أن نخضع هذه الصورة لأفكارنا البشرية المادية العصرية القاصرة أمام عظمتها النبوية ، ولا نرنو ببصرنا عبر القرون لنرى حقيقة هذا الصراع بين الوحدانية والوثنية ، وكيف استطاع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بحسن بلائه وصدق جهاده وجميل خلقه ، أن ينقذ

بدعوته الإسلامية أمة غارقة فى الشرك والوثنية ، فإننا بهذا لايمكن أن نكتب سيرة النبي بحقيقة مفهومها الروحى .

والماديات تعالج بالماديات .

والروحانيات تعالج بالروحانيات .

والطبيب النفسي يعالج مرضاه نفسياً وروحياً بالحديث والجلسات .

والطبيب الجراح لايتبع هذا الأسلوب فى علاج مرضاه .

فالحديث عن السيرة يجب أن يكون دائما حديثا روحيا صافيا صادقا

وليس ماديا بشريا نخضعه لمناهج بحث قد تدعو إلى القلق والحيرة .

وعلى هذا جعلت كتابى هذا عن سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليس ترجمة لسيرته أو بحثا لها ، ولكننى رأيت فى هذه السيرة العظيمة لوحات رائعة بهرتنى بضيائها ، وقد لايربط بينها إلا صاحب الرسالة محمد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وكلها عبر ودروس لنا .

وكلها أمثلة تحتذى .

فكانت هذه اللوحات التالية لصور مشرقة مضيئة بنورها النبوى .

تدفعنى إلى تسجيلها نفحة روحية من نفحات الإيمان الخالص بحب عقيدة الإسلام وحب محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ولم أشأ أن أغوص أو أنحرف إلى مذاهب بحث حديثة نحا نحوها بعض كتابنا الأجلاء مدفوعين إلى مناهج البحث الغربى ليضعوا بعضا من صور السيرة العظيمة تحت الفحص المادى لذهننا البشرى الدنيوى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم رسول ونبى ، وصاحب رسالة ختمت رسالات السماء وأدبه ربه فأحسن تأديبه .

وأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

وأراد بدينه للعالمين خيرا ، وبشر أمته بأنها خير أمة أخرجت للناس فقال عز وجل :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[1] .

وهدم به صروح الوثنية .

هذا النبى الكريم الذى أكرم الله به أمة الإسلام .

نسمح لعقولنا البشرية التى عجزت عن أن تأتى بآية من آيات كتاب الله الذى أنزله عليه .

هذه العقول الإنسانية البشرية تضع المعايير والمقاييس المنطقية — لسيرة نبى ؟ !

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

إن هذا عبث لا طائل وراءه إلا البعد بمفاهيم الدعوة إلى متاهات المادية التى يدعو إليها كتاب الغرب ومؤرخوهم ومستشرقوهم .

ومثل هذه الأساليب أراها دخيلة على الفكر العربى الخالص .

فليس هذا مجال لمنطق أرسطو وغيره من أصحاب المقدمات والنتائج . إنها سيرة روحية عطرة مشرقة لأكرم نبى وأشرف إنسان .

ويجب أن نتقبلها كما تقبل أبو بكر خبر الإسراء وقال للذين أتوا إليه يقصون خبره قبل أن يسمع به من النبى صلى الله عليه وسلم : (والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك)؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه) .

ولم يقل أبو بكر رضى الله عنه ذلك عبثا وإنما قاله لأنه «الصِّدِّيق » الذى نظر إلى صاحب الرسالة نظرة أعمق وأشمل من تلك التى نظر بها غيره من الذين لم ترق روحهم إلى مستوى الإيمان اللازم فى هذه المواقف .

وهذا رأيى فى تناول السيرة النبوية .

يجب أن نتناولها بصفاء ذهنى لانضع عراقيل المنطق تأخذ طريقها أمام صدق روايتها وجميل سردها فى كتاب الله الكريم ، وفى كتب السيرة ذات الأسانيد الصحيحة .

فلتكن هذه الصفحات التالية تحمل بين طياتها روحية الإيمان الخالص لعقيدة الإسلام ونبى الإسلام .

استئذان

قال تعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[١] .

سيدى يا رسول الله . . .

قرأت سيرتك العطرة مرات ومرات وبهرتنى منها صور مشرقة صافية . .

فيها كل الإشراق والصفاء والإخلاص والصدق والصبر والجهاد : :

وأية أسوة خير من أسوتك لمن أراد الله واليوم الآخر . .

وأية سيرة أكرم من سيرتك المليئة بجهادك وكفاحك فى سبيل نشر دعوتك وتأدية أمانتك . .

فلتكن تلك الصور المشرقة الصافية أخطها فى صفحات لشباب جيلى ليرى أى جهاد جاهدت ، وأى صبر صبرت . .

فى عالم بعثته بعثا جديدا ، وألبسته ثوبا قشيبا من طهارة الروح وسمو الإيمان . .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .

إنه حديث قلب مؤمن — مدين لك بإيمانه : أسوقه في مجال سيرتك العطرة يا رسول الله .

ورحاب سيرتك تبهرني بضيائها وتخطف بصرى الكليل بنورها النبوى . .

ورحاب سيرتك واسعة ، أطمع لكياني الضعيف ووجودى البسيط أن يجول فيها وجلا مبهورا .

وجلا ، لجلال قدرك ، وعلو منزلتك ، وسمو مكانتك .

ومبهورا ، لعطر سيرتك مازال يفوح علينا بطيب ذكراك وجميل خلقك وصدق جهادك بعد كل هذه القرون .

وستمر الأيام وهو لايزال طيبا كما كان .

ويدفعني نور سيرتك وضياء رحابك الطاهرة أن أستأذن قبل أن أجول ، وأصلى عليك قبل أن أتكلم .

وأملى فى كرمك كبير ياأكرم الكرماء .

ورجائى فى ملاذك كثير ياأشفع الشفعاء .

ووقفت بباب ربى تائبا مستغفرا ، إن كنت قصرت فى كلمة أو سهوت فى حرف ، لأننى طمعت فى كرمك وسماحتك وجميل خلقك .

وبرح بى الشوق إلى رحابك الطاهرة .

ويعلم الله كم أشفقت على نفسى وعلى قلمى من أن يخط فى سيرتك الحافلة بجليل الأعمال حرفا .

ولكنه الحب يسوقنى لسيرتك ويدفعنى إلى الفناء فى رسالتك .

فما قصدت إلى كتابة سيرتك على النمط التاريخى المعهود فى مجال التراجم ، وإنما أردت أن يكون لى نصيب متواضع فى مجال الحديث عن سيرتك ، وقد طمعت فى كرمك فوقفت فى رحاب سيرتك أخاطبك يارسول الله ، يأخذ بيدى حلمك وجميل شمائلك ، ورجائى أن تأذن لى لأجول فى هذه الرحاب أنعم بلطائف خلقك وثمار غرسك .

فليكن كتابى هذا المتواضع سبيلا للوصول إلى ما أريد من بيان بعض مواقف جهادك وأدبك الذى أنعم الله عليك به حين قال :

(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [1] .

وليكن ذلك بعض سبيلنا إلى الحياة الروحية السامية ونحن نقف على دربها ، نستعين الله أن يشد عزمنا على السير فيه ، وما يتطلبه من جهاد عظيم .

وكم من الصور يمتلىء بها موكب سيرتك ، وكلها جهاد فى سبيل الله وارتقاء إلى معارج السمو والرفعة .

وليكن ذلك الجهد الضئيل أمام عظمة سيرتك يحمل من الإخلاص لك والحب لرسالتك قدر مايحمل آلاف المرات من حروف كلماته .

ولتكن لجيلنا — فى هذه الصور المشرقة — أمثلة للصبر والجهاد فى سبيل الله .

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم .

وقدوة للسير فى طريق الخير والرشاد . .

طريق الخلاص والإيمان والسمو الروحى . .

وليكن حديثى كما ذكرت سبيلا إلى محبتك . .

وطريقا إلى رحاب سيرتك . .

ولعلنى لا أكون قد تطاولت وأطلت فى مقام حضرتك ومجال سيرتك ، فعذرى كثير حبك وأمل رضاك . .

لأنال رضا ربى جل شأنه وعلت قدرته . .

وطوبى لمن سار ووصل . .

وصبرا لمن سار ولم يصل . .

وهنيئا لنا بدينك وسيرتك يارسول الله . .

يا خاتم النبيين وسيد المرسلين . .

ياساكن الجنة . . وثاوى المدينة . .

إلهى ، يا أرحم الراحمين . . أسألك الرضا يارب العالمين . .

ورضا رسولك الكريم . .

اللهم لاتخيبنى وأنا أرجوك . .

ولا تعذبنى وأنا أدعـوك . .

اللهم طهر قلبى من النفاق . . وعملى من الرياء . . ولسانى من الكذب

لك العتبى حتى ترضى . .

ولا حول ولا قوة إلا بك . .

أول اللقــاء

ال تعالى :

(ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنْسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *)[1] . . .

وسط ضباب الحيرة ، وسراب الشك الذى ساد الدنيا بعد أن طمست الوثنية معالم الطريق ، التى وضعتها ديانات السماء ، لهداية البشرية على طريق تقدمها الطويل لمعرفة الحق ، وأقامت مكانها المعابد ، تصطف فى ردهاتها تماثيل آلهتها جامدة صامتة كالبلهاء وسط دخان البخور ، وطقوس العبادة ، وتراتيل الكهنة المفتعلة التى تحمل برودة النفاق أكثر مما توحى بحرارة الإيمان وصدق التعبير . .

وسط دياجير الشرك وظلمات الوثنية التى لفت عقول البشر وحجبت عنها نور المعرفة ، وأمام عبث العابثين برسالة موسى الكليم وعيسى المسيح عليهما السلام وفى انتظار الأمل تحيي به السماء نفوسا تطلعت لمعرفة الحقيقة بعد أن ضلت الإنسانية طريقها إلى الله .

---

(١) الآيات ١ — ٥ من سورة العلق .

وسط هذا الإعصار الوثنى الذى طمس ديانات التوحيد ، وأحــال الدنيا إلى مرتع وخيم لديانات لا تمت إلى السماء بصلة .

دلف من السماء جبريل الأمين ينادى بصوته الجليل المهيب :

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . .

قالها لك الوحى الكريم يا رسول الله وأنت تقف مبهورا على سفح جبل حراء : فى لحظة لا نشك أن الوجود كله وقف يرهف السمع لجلال هذا الموقف الذى طال عليه انتظاره ، وتلاشت الحواجز ، وانقشعت الحجب ، لتبدو الإنسانية فى وحدتها الأزلية منذ خلق الله آدم عليه السلام ، لترى نتاج جهودها المضنية فى سبيل التوحيد ، ولتشهد المعركة الضارية التى أعدت لها قرونا بعد قرون ، ومهدت لها السماء برسالة تلو رسالة .

وأكرمك الله يا رسول الله فاصطفاك للقيام بعبء هذه الرسالة ، لتدخل الناس إلى رحاب الله ، بعد أن ضاعت المفاهيم وطمست المعالم .

وقف الوجود كله ساكنا خاشعا . يشهد أخطر لحظة ادخرتها السماء ، ليتم فيها اللقاء بين سفيرها جبريل الأمين ورسولها الكريم محمد ابن عبد الله ، يحمل كلمة الحق ينير بها طريق الإنسانية فى بعثها الجديد ليهديها إلى معارج السمو ، وسبل التقدم ودروب الخير . .

إن هذه اللحظة التى وقفت فيها يا رسول الله تنظر إلى السماء فلاترى إلا جبريل الأمين يملأ فضاء الدنيا : وكأنه يعلن لك عظمة ربك وضخامة رسالتك .

هذه اللحظة ليست ككل اللحظات التى مرت بالإنسانية . .

إنها لحظة الجلال ذاته والخشوع لرب العالمين . .

إنها لحظة ميلاد دين جديد هو دين الإسلام . .

وعالم جديد هو عالم التوحيد . .

وأمة جديدة هى الأمة المحمدية . .

وقفت الإنسانية فى وحدتها الأزلية ترهف السمع لتسمع كلمة الحق . .

وكيف لا . . وهى كلمة الله يحملها وحى ويبلغها رسول . .

تلقى عليك يا رسول الله فى غار موحش بأعلى جبل حراء . .

وأى غار هذا الذى حوى هذا المشهد الفريد بينك وبين وحى ربك . .

كم ذهبت إليه يا رسول الله تبحث عن حقيقة هذا الكون وسر هذا الوجود .

الشمس والقمر والسماء وما فيها من كواكب ونجوم تبدو كالدرر واللآلىء المنثورة على صفحتها ، وتتحرك بنظام دقيق ، وبحساب أدق .

ثم هذه المخلوقات العجيبة التى لا حصر لها والتى تمتلىء بها دنيا الله .

ثم هؤلاء البشر الذين يملأون الوجود وتمتلىء بهم رحاب الأرض تتصارع وتتقاتل وتكد وتسعى .

هذا الكون الذى لا نهاية له ولا تكاد تبدو له بداية ، وهذا الفضاء العريض الذى ينسلخ نهاره من ليله لابد أن له خالقا يرعاه ويحفظ نظامه ويقدر أقواته بطريقة يعجز عنها البشر وأصنامهم الجامدة .

وهذه الظواهر الطبيعية التى تبدو فى ظاهرها بسيطة ولكنها لا تدل إلا على عظمة الخالق وجلال المدبر .

فى هذا الغار الموحش قضيت يا رسول الله الأعوام الطوال تبحث عن كل هذا ، وتلتمس الحق وتهديك فطرتك إلى طريق المعرفة لترى آيات ربك خالق السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

كم جاهدت وكابدت يا رسول الله وأنت تصعد إلى قمة الجبل تقيم وحيدا فى الغار إلا من إيمانك : أنيسك الحق ورائدك الهدى .

كم تحملت من مشاق جسام طوال سنين قضيتها وأنت تتأمل ملكوت ربك تبحث عن جوهر الإيمان وسر الإله ، وكم من الليالى والأيام قضيتها ساجدا لربك تتجه إليه ليهديك ويأخذ بيدك إلى سبل المعرفة ودروب الخير . .

أعوام وأعوام مرت وأنت تشق طريقك وسط شعاب مكة وظلمات الوثنية تطمس دروبها ، وتمضى وحيدا إلى غار حراء تتنفس عبير

الوحدانية بعيدا عن هجير الوثنية تتعبد لخالق الكون حتى بلغ الكتاب أجله وجاءت اللحظة الحاسمة فى حياة الوجود كله ليهديك الله إلى طريق الحق ، طريق الإسلام ، طريق السماء . .

وليأخذ بيدك رب العالمين إلى معارج السمو ودروب الهداية فى عالم طغى وتجبر وكفر وأشرك .

وتقيم بقرآن ربك دنيا من العدل والنور . .

وتمحو من الوجود دنيا ظالمة وعالما مظلما . .

وقد سبق لك يا رسول الله تاريخ طويل امتلأ بكل ألوان الخير والأمانة . . تاريخ ناصع سبق بعثك لتكون أهلا لكل ما سيلقى عليك من وحى ربك .

وما أصدق الرسالة يبلغها رسول مثلك صاحب تاريخ رائع عرفته مكة طوال أربعين عاما سبقت هذه اللحظة الخالدة التى ستكون بعدها سفيرا بين السماء والأرض ، لتبلغ رسالة ربك ، وتختم بها رسالات الأنبياء ، وتحقق دعوة جدك إبراهيم ودعاءه إلى ربه :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[2] .

---

(١) الآية ١٢٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب .

فما إن يبلغ الكتاب أجله وتحين لحظة استجابة دعاء إبراهيم الخليل حتى تكون وحيدا فى غار حراء تشهد أروع لحظة ادخرتها السماء .

وهل فى الوجود كله أروع من تلك اللحظة التى فتحت السماء فيها أبوابها ليدلف منها جبريل الأمين ، يقف بطلعته المهيبة أمامك فى غار حراء ، ويكاد يحتويك بين ساعديه وهو يقول لك بصوته الملائكى : اقرأ . .

وترد عليه يا رسول الله قائلا : ما أنا بقارىء . .

ويحتويك مرة ثانية وهو يقول : اقــــرأ . .

ولكنك تقــــول لـــه : ما أنا بقارىء . .

ويحتويك للمرة الثالثة ويقول لك : اقـــــرأ . .

وتخشى الموقف الرهيب الذى فاجأك فى الغار فتقول له للمرة الثالثة : ما أنا بقارىء . .

فيتلو عليك الوحى الأمين :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[1] .

وتتلو يا رسول الله هذه الكلمات فكأنها نقشت فى قلبك .

---

(١) الآيات ١ — ٥ من سورة العلق .

وتخرج من الغار تريد منزلك فى مكة فما تكاد تتوسط الجبل حتى نسمع صوتا مهيبا جليلا يأتيك من السماء :

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . .

فترفع رأسك لترى الوحى الأمين فى صورة رجل يملأ فضاء الدنيا أمامك ، ولا تستطيع أن تتقدم أو تتأخر ، فجعلت تصرف وجهك عنه فى آفاق السماء فلا تنظر فى ناحية منها إلا رأيته يملأ الفضاء العريض بطلعته الملائكية الجليلة ، وصوته يدوى فى أركان الدنيا يملأ قلبك بالخشوع والإيمان لرب العالمين وهو يقول :

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . .

يطمئن نفسك ويهدىء روعك ، ولتكون فاتحة وحى وصداقة علوية ستستمر فى هذه الدنيا ثلاثة وعشرين عاما .

فهو جبريل عليه السلام ، وحى السماء يحمل كلمة الله . .

وأنت محمد عبد الله ورسوله ، تبلغ الرسالة وتؤدى حقها . .

أية روعة التى غشيت ذلك اليوم . .

وأى جلال ذلك الذى ساد أركان الدنيا . .

وأى رضوان هذا وأى سمو ورفعة . .

إنها أعراس الدنيا وأفراح البشرية بلحظة طال انتظارها ، محت بإشراقها ظلام أحقاب من الجهل ، وقرون من الظلم ، وأزالت صدأ الجمود الذى ران على قلوب البشر أجيالا وراء أجيال . .

إنه الضياء الإلهى أضفاه الله عليك أنت النبى الأمى التى شاءت إرادة الله جل شأنه أن تكون رسول العالمين وخاتم المرسلين .

وأية رسالة سامية تلك التى تبدأ بكلمة تحمل كل معانى المعرفة وطلب العلم (اقرأ) إنها رسالة العرفان والتقدم ، تبدأ بها البشرية مرحلة المعرفة واستخدام العقل بعد انتهاء عصور المعجزات الحسية .

إنها قمة الجهود التى بذلتها البشرية لتنعم عليها السماء برسالة خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فكم من الأيام والليالى مرت عليك ياسيدى يارسول الله وأنت بعيد عن زحام الحياة فى مكة ، وقد توجهت إلى غار حراء حيث تتلقى شعاع الهدى من ربك ، وقد كان ذلك موقفا مشهودا فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، بل فى تاريخ الرسالات السماوية ، لأنه جاء فى ليلة اختارها مقدر الأقدار العزيز الحكيم ، وفى شهر انتظم بين حباته الدرية هذه الليلة المباركة . .

والشهر هو شهر رمضان المعظم :

(شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)[1] . .

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

والليلة ليلة القدر . .

ولا ندرى أيهما جاء بالآخر وإن كنا نقرأ آيات ربك :

(إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ)[1] .

فنعرف أنها خير من ألف شهر ، حتى ولو كان شهر الصيام ، لأن الآيات لم يرد فيها استثناء ، تقابلت ياسيدى يارسول الله فى هذه الليلة المباركة المشهودة من هذا الشهر المبارك المشهود بسفير السماء جبريل الأمين يستفتح طورا جديدا من أطوار العقائد السماوية — بـ (أقـرأ) . .

(وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ)[2] .

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[3] .

---

(١) سورة القدر .

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

نعم ، لم تكن بقارىء ياسيدى يارسول الله ولكنك وأنت الأمى حملت أمانة الكلمة بكل ماحوته من عظمة محتواها وضخامة مغزاها ومسئولية إبلاغها .

فبدأ عصر العقل والعلم بـ (اقـرأ) ليصل بنو البشر إلى حيث تضيق بعلمهم دروب الأرض فينطلقون إلى فضاء الكون يغزونه بعلمهم وقد نسوا أن محكم آيات ربك قد جاء به :

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)[1] .

نعم ، ياسيدى يارسول الله .

لقد انطلق البشر بعد أربعة عشر قرنا من نداء السماء : (اقرأ) إلى رحاب الفضاء وقد طال عليهم الأمد فنسوا فى خضم العجب والدهشة والانبهار بمكتشفات العلم الحديث أنك بدأت برسالتك المحمدية هذا العصر من العلم الذى يساير الإيمان ويخدم قضية الإنسان . .

وتظل يارسول الله واقفا أمام الغار تقلب بصرك فى أرجاء السماء حتى ينصرف الوحى عنك ، وهنا تسرع الخطا إلى مكة . . . . إلى الزوجة المخلصة الوفية الطاهرة خديجة بنت خويلد لعلك تجد عندها الطمأنينة . .

إنك الأمين صاحب التاريخ الفاضل ، وصاحب الخلق الجميل والأدب والحكمة والأمانة والزهد وسائر الفضائل التى عرفك بها الجميع .

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الذاريات .

ثم إنك صاحب الرؤيا الصادقة التى روض الله بها نفسك حتى تقوى على تحمل الموقف الجليل ، موقف الوحى فى غار حراء يلقى عليك عبء تبليغ الرسالة ، وتأدية الأمانة ، وتصل إلى واحة الإيمان وسط هجير الوثنية اللافح ورمضاء الشرك فى مكة حيث تلقاك الطاهرة خديجة شريكة حياتك وزميلة جهادك .

وتقص عليها ما حدث ، فلا تجد فيه خديجة شيئا غريبا عنك ، فهى الزوجة المخلصة الوفية التى تعرفك حق المعرفة فتهديها فطرتها إلى أن سيرتك الطاهرة وسمو أخلاقك لا يمكن أن تتلاقى مع شر أبدا ، ولن يصيبك إلا كل الخير وكل الرشاد من رب العالمين ينعم بهما عليك أنت المصطفى من بين عباده أجمعين .

فتقول لك الطاهرة خديجة :

الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشريا ابن عم واثبت فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لايخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . .

وتدعوك لتريح جسدك ، ثم تنطلق إلى منزل ابن عمها ورقة بن نوفل وقد كان كثير القراءة فى التوراة والإنجيل ؛ وتقص عليه ما دار بينك وبينها وما حدثتها به فيقول لها :

قدوس ، قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وأنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت .

وتعود إليك وقد ازداد إيمانها بصدق فطرتها ويقينها الذى لم يتزعزع يوما من الأيام انك لست مثل الآخرين ، وأن هذا اللقاء بينك وبين الروح الأمين كانت تراه رأى العين وتحس به دائما .

ويدفعها بعض القلق عليك أن تتأكد بنفسها من حقيقة هذا الوحى فتطلب منك حين يأتى جبريل الأمين أن تجلس على فخذها فتخبرها أنك ما زلت تراه فتجلس فى حجرها فلا ينصرف وهنا تلقى بخمارها فتخبرها أنه قد انصرف ، فيزداد يقينها وتهتف بك أن هذا ملك وليس بشيطان .

ويستمر الوحى الأمين يهدئ روعك وينزل عليك بآيات الذكر الحكيم حتى جاء لك بسورة المدثر :

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ *)[1] .

ويرق قلب خديجة لحالك وقد رأتك تتفصد عرقا فتدعوك لتريح نفسك وتلزم فراشك ، ولكنك يارسول الله تقول لها :

---

(١) الآيات ١ — ٧ من سورة المدثر .

انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وعبادته ، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب لى ؟

ويظهر دور خديجة الرائع كزوجة لنبى كريم :

فهى حاضنة الإسلام وقد حفظ لها التاريخ فى سجله الأمين أنها أول من صدقت وأول سيدة أسلمت :

فليكن لها فى قلبك الكريم يا سيدى يارسول الله مكانا لن تشغله أبدا أى من نسائك بعد ذلك حتى آخر أيامك فى هذه الدنيا :

وستمر الأيام والسنون وأنت فى المدينة تجلس مع زوجك عائشة فتسمع خارج بيتك صوت هالة أخت السيدة خديجة وقد جاءت من مكة لزيارتك وما كان أشبه صوتها بصوت الراحلة خديجة وتهتف بها وقد امتلأ صوتك بكل الحنين والوفاء : (اللهم هالة) وهنا ترد السيدة عائشة وقد أخذتها الغيرة : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر أبدلك الله خيرا منها[1] .

وتغضب يا رسول الله من أجل الراحلة الكريمة وما كان أقل غضبك وتقول لها : لا والله ما أبدلنى خيرا منها . . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء .

---

(١) محمد عطيه الابراشى عظمة الإسلام ص ٤٨٠

ما أجمل وفاءك يا رسول الله .

وطوبى لك أيتها السيدة الفاضلة المخلصة المؤمنة .

يا زميلة الكفاح وشريكة الجهاد .

وكفاك كل هذا الجلال الذى أحاط بزوجك الكريم .

فأنت زوجة محمد الأمين بين شباب مكة ورجالها .

محمد النبي والرسول .

وأنت أول المصدقين وأول المؤمنين .

ولكن رضا الله أجمل من كل هذا .

فها هو جبريل الأمين يأتيك يا رسول الله ويقول لك :

(أقرئ خديجة السلام من ربها) . .

إن فى ذلك غاية الرضا من رب العالمين لتلك النفس الصادقة المطمئنة ، وأمنية السالكين ، وأمل المحبين .

سلام من رب العالمين إلى خديجة بنت خويلد .

يحمله جبريل عليه السلام ويبلغه النبي الكريم .

فارضى واطمئنى بعد كل هذا التكريم وكل هذا الرضا من رب العالمين وستبقى ذكراك دائما عطرة فى نفس النبي الكريم حتى آخر عهده بالدنيا .

* * *

وتخرج يا رسول الله بعد أيام من لقائك مع وحى ربك تطوف بالكعبة ويقابلك ورقة بن نوفل فيقبل رأسك ويقول لك :

والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة . ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ويا ليتنى كنت قويا إذ يخرجك قومك .

فتقول له : أو مخرجى هم ؟

فيقول ورقة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا مؤزرا .

ولكن ورقة يموت بعد ذلك بأيام . . .

* * *

وتجول بخاطرك يا رسول الله أبعاد هذه المهمة التى ندبك الله جل شأنه للقيام بأعبائها .

أى مجتمع هذا الذى تدعوه إلى التكبير لله وحده ونبذ عبادة الأوثان .

إنه مجتمع يحمل أبشع صور العصبية والوثنية والشرك والضلال .

مجتمع مثله الأصنام وعماده إهدار القيم الروحية .

هل آن لك يا رسول الله أن تحقق دعاء جدك إبراهيم الخليل عليه السلام :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ . .)[1] .

هل حان وقت تطهير البيت الحرام أول بيت وضع للناس من كل مظاهر الشرك والوثنية ، ليؤدى رسالته إلى العالم كما أدى رسالته أيام إبراهيم الخليل وإسماعيل عليهما السلام :

(وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ)[2] .

أثبت إذاً يا رسول الله فتلك رسالة ربك السامية وأنت رسولها . وتلك رسالة الإسلام آخر رسالات السماء وأسماها .

وهى دعوة الوحدانية والعدل .

فاصبر وما صبرك إلا بالله ، فقد آن لهذه القلوب القاسية أن تلين ، وآن للرحمة أن تجد سبيلها إليها .

وآن للبيت الحرام أن يكون مثابة للناس وأمنا .

وآن للبشرية كلها أن تكون لها رسالة واحدة هى رسالة الحق . . رسالة الإسلام . .

---

(١) الآتيان ٣٥ ، ٣٦ من سورة ابراهيم .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

وستعلو راية الدين الجديد خفاقة عالية ، تحملها نفوس سمت روحها إلى معارج السمو والخلود .

وستبقى كذلك ما بقيت وما بقى الوجود .

وستبقى أمتك يا رسول الله رائدة الأمم بسمو شريعتها وصدق عقائدها .

وقد طافت بمخيلتك صور المجتمع الوثنى الذى يجثم على مكة وما حولها ، وقد ضاعت تعاليم المسيح ، وحرفت شريعة موسى الكليم عليهما السلام .

وهى صور وعيتها منذ طفولتك وصباك .

وكان عليك أن تبدأ دعوتك يا رسول الله فى هذا المجتمع الممعن فى شركه ووثنيته .

إنه مجتمع لا يعرف غير المادية فى أبشع صورها وعلى رأسها الربا .

إنه مجتمع السادة والعبيد .

مجتمع التجارة والمال . . . مجتمع اللات والعزى .

لا مثل ولا قيم ولا مبادئ روحية ، وإن وجدت فكلها تذوب فى العصبية والوثنية .

إنها والله يا رسول الله لمسئولية جليلة ، تلك التى ستقوم بأدائها وحملها ، لكى تفجر لقومك أنهارا من المعرفة ، وعيونا من الإيمان ، ولتخرج به هذا المجتمع من الوثنية إلى الإيمان بالله الواحد الأحد .

ومن المادية إلى الروحية .

ومن الانحلال إلى الخير والرشاد .

ليفتح الله لهم أبواب الخير لتلج الإنسانية كلها إلى رحاب هذا الدين الحنيف :

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)[1] .

ستخوض يا رسول الله معركة ضارية مع قادة الشرك وأئمة الوثنية ورسل الضلال والفساد .

أنت النبى الأمى . . ولكنك الأمين .

الأمين فى نفسك وفى غيرك . . الأمين فى قومك وعشيرتك . .

الأمين فى رسالتك وبلاغك للناس . . الأمين فى مقالك وحديثك .

عليك إذاً تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة يهديك رب العالمين ويعينك ، وقد بعثك بالحق بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا ، ويساندك بوحيه وملائكته . .

وتتلاحق كل هذه الصور فى مخيلتك تنتظر الوحى يهديك ويشد أزرك وينير أمامك سبيل نشر الدعوة ، ولكن لا شئ من ذلك كله

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النساء .

ويعتريك الإشفاق مثل ما اعترى زوجك الطاهرة حتى ظنت أن يكون ربك قد ودعك وقلاك .

وإذا أنت تحزن لهذا الخاطر وتأخذ عليك الحيرة كل مأخذ ، ولكنه كان أمرا مكتوبا وقدرا مقدورا .

ويشاء جل شأنه أن يرد إلى نفسك سكينتها وإيمانها بصدق الدعوة فينزل الوحى الكريم :

(وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَئَاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

لا خوف إذاً ولا قلق من أن يكون ربك قلاك . .

وإنما كفاح فى سبيل الدعوة وسير فى معارج السمو الروحى .

وعطاء من ربك حتى ترضى .

---

(١) سورة الضحى .

انطلق يا رسول الله برسالتك إلى وجود ربك ، لتبلغ رسالة الإسلام دين الإنسانية التى آن لها أن تستظل بآخر رسالات السماء .

أى فضل هذا عليك يا رسول الله من رب العالمين لا يقاس بأفضاله السابقة عليك :

يوم وجدك يتيما فآوى ،.

ووجدك ضالا فهدى .

ووجدك عائلا فأغنى .

فلتطمئن نفسك وليهدأ ضميرك .

وأما بنعمة ربك فحدث .

وليكن ذلك درسك الأول من ربك العليم الخبير .

فاستقم كما أمرت

قال تعالى :

(وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً *)[1] . . .

سيدى يا رسول الله . . .

أشرقت شمس الإسلام يوم نزل جبريل الأمين يعلن لك خبر السماء ، وازدادت نفسك المؤمنة صفاء واطمئنانا بصدق الوحى يوم جاء بسورة الضحى مؤكدا رضى ربك وعطاءه الذى لاحد له ، وكرمه الذى أسبغه عليك يوم وجدك يتيما فآوى وعائلا فأغنى ، يطمئن نفسك أنت المصطفى من لدن العليم الخبير لتؤدى الأمانة إلى أهل الأرض .

وسار موكب الدعوة يشق طريقه وسط شعاب الوثنية التى تدمى ضمائر الموحدين ، وفى هجير يلفح قلوب المؤمنين ، ويكاد يخنق أنفاسهم وبدت الدعوة كنسائم رطبة تهب على قلوب هؤلاء الذين أراد لهم الله أن يكونوا نواة دعوتك .

---

(١) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة الإسراء .

أسلم على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وهما اللذان كانا يستظلان بظلك فى واحة الإيمان بمنزل الكريمة خديجة بنت خويلد .

وأسلم أبو بكر الصديق وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص وغيرهم كثيرون من السابقين الأولين الذين لبوا دعوة الحق وأسلموا لله جل شأنه .

ولعلنى أستطيع أن أرجع ببصرى عبر القرون لأراك ياسيدى يارسول الله وقد بدأت دعوتك سراً بين هؤلاء الذين توسمت فيهم نبل الغاية فازداد عدد المنضوين تحت راية الإسلام ، واستظل الكثيرون من المستضعفين بظل رسالتك بعد أن لفحتهم الوثنية وأدمت السياط ظهورهم .

فأسلم بلال الحبشى الذى قدر له أن يكون مؤذنك يارسول الله وأجمل صوت علا المآذن .

وأسلم عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية .. هؤلاء الذين قلت لهم وقد تألمت لعذابهم من مشركى قريش :

(أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة) ..

واستمرت الدعوة سراً ثلاث سنوات يزداد فيها المسلمون عددا وقريش تسمع هذه الدعوة الجديدة فلا تقيم لها وزناً ولا تحسب لها خطرا وإنما هو الهمس يجرى بين المسلمين بعضهم مع بعض حينا ، وبينهم وبين أقاربهم من المشركين حينا آخر .

ولم يدر هؤلاء الذين أظهروا العداء للدعوة أو أهملوا شأنها أو حسبوها نزوة طارئة كتلك التى كانت ترد إليهم مع قوافل فارس والشام تمثل بعض عقائد الأمم أن الله متم دينه وناصره ومظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وقد أراد لك الله أن تعان دعوتك يارسول الله وأن يتحول الهمس إلى الجهر معتمداً على تلك الفئة القليلة التى تقودها بهدى ربك ؛ وتخوض بها معركة ضارية بين عقيدة الحق وعصبية الشرك .

وقد جاءك الوحى الأمين بأمر ربك :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)[1] .

ثم يقول لك :

(فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ)[2] .

وتعرف يا رسول الله أن الله قد أمرك بالجهر بالدعوة وإعلان الرسالة لتهدم ما شادته الوثنية ، وتقيم صرح أمة ستطأ عرش كسرى وتهز عرش قيصر . وستعنوا لها الجباه ليس فى الجزيرة العربية فحسب بل فى بلاد الشرق والغرب حين ينصر الله عبده ويعز جنده .

---

(١) الآيات ٢١٤ – ٢١٦ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٩٤ من سورة الحجر .

وعلى الرغم من هذا الإصرار على الباطل من بعض عشيرتك يارسول الله لم تتردد وحماة دينك قليلون مستضعفون .

فصعدت على الصفا تعلن لأهل مكة دعوتك إلى الدين الجديد وتنادى :

يا معشر قريش . .

وتدهش قريش لهذا النداء ولكنها تسرع لترى ما وراءه . .

فتقول لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونى ؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط . .

فتقول لهم : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .. يابنى عبد المطلب يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة ، يابنى تميم ، يابنى مخزوم ، يابنى أسد ، إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لاأملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله .

ويندفع عمك أبو لهب فى عناده وشركه وحسده وعصبيته ليقول لك :

تبًّا لك سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟

وتنظر إلى عمك فى إشفاق وأسف وقد حزنت لموقفه المشين أمام جمع مكة وقد أعماه الجهل عن أمر وحى السماء ولم يدر بمددها الذى

تبعثه لنصرتك ، فها هو جبريل الأمين يأتيك برأى السماء فى أبى لهب :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ)[1] .

وأصبحت هذه الآيات سياطا تلهب ضمير أبى لهب وامرأته .وتحيل حياتهما فى مكة إلى جحيم دائم وسعير مستمر ، وصورتهما معا ، هو بلهيبه المشتعل ، وهى تحمل الحطب وفى رقبتها حبل من مسد : تملأ أذهان المشركين بالهلع والذعر .

ولم يمنعك كل هذا العناد عن الاستمرار فى دعوتك يساندك الوحى ويؤازرك أصحابك هؤلاء الذين تحملوا أذى قريش وعنادها فى صبر وأناة ، لا يثنى عزيمتهم شىء ، أملهم الدعوة إلى الإسلام وازدياد عدد المؤمنين به والثبات فى وجه الطوفان الوثنى الذى أراد أن يكتسح هذه الواحة التى نبتت وسط هذا الخضم من الكراهية والحقد .

كم تحملت هذه الفئة المؤمنة عذاب المشركين فى رمضاء مكة وشعارها لا يتغير أبداً : أحد .. أحد.. منهم سادة قريش كأبى بكر وعثمان والزبير ، ومنهم المستضعفون كخباب وصهيب وبلال وعمار .

---

(١) سورة المسد .

فالعقيدة الجديدة تضع الجميع أمام الله فى مساواة مطلقة وتمنحهم الحرية المطلقة .

لا سادة ولا عبيد ، ولا أبيض ولا أسود ، ولا عربى ولا أعجمى ، وإنما الجميع أمام الله سواء :

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [١].

وتبدأ السماء ترسم لهذه الفئة المؤمنة سلوكها فى نفس الوقت الذى تنزل فيه الآيات تساند الدعوة وتهاجر المشركين وتتوعد الكافرين .

ويريد لك الله الكمال والرفعة .

الكمال فى خلقك وتصرفك لتكون هاديا ومبشرا ونذيرا ، ليسمو بك هذا الخلق إلى أقصى درجات الأدب النبوى ولتكون مثلا لأمتك ، تحذو حذوه ، وتسلك سلوكه ، وتنهج نهجه .

حتى إنك تشفق على هؤلاء الذين حالت جلاميد الشرك من وصول شعاع من أشعة الدعوة إلى أفئدتهم ، فأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأن يحجبوا شمس الدعوة بعنادهم .

ويحدونى أدبك وكرمك يا رسول الله أن أعرض صورة نادرة من رحاب سيرتك وصورة مشرقة من صور الجمال النبوى :

---

(١) الآية ١٣١ من سورة الحجرات .

يوم جاءك الوليد بن المغيرة سيد مكة ، وأحد أشراف قريش ، فأخذت تعرض عليه الدعوة والأمل يحدوك فى إسلامه لتعز به الإسلام وتكسب به سيدا من سادات قريش سوف يهتز لإسلامه هذا التكتل العصبى الذى أقامه سادة مكة فى وجه الدعوة .

وفيما أنت تؤدى هذه الرسالة إذا رجل من الفقراء المستضعفين الذين كان لهم السبق فى تلبية نداء الإسلام ، رجل أعمى فقير وهبه الله نور البصيرة وهداه إلى جادة الإيمان فاتخذ مكانه وسط هذه الفئة المستضعفة التى أراد لها الله أن تكون حاضنة الإسلام .

إنه عمر بن أم مكتوم الأعمى الفقير فى ماله ، الغنى بإسلامه ، جاءك يستقرئك القرآن وهو يلح عليك يا رسول الله — وأنت الحليم فى موقف ترى أن جهدك كله قد انصرف إلى إقناع السيد الشريف الغنى الوليد بن المغيرة ، وتتولى عن ابن مكتوم الذى صرفك عن استكمال عرض الرسالة على سيد مكة .

وتخلو يا رسول الله إلى نفسك وقد علمت بنبلك وجميل شمائلك وصفاء ذاتك أن الله معاتبك فى هذا الفقير الأعمى .

وما أسرع الوحى ينزل بآيات الأدب الربانى لخير من أنجبت الدنيا يا رسول الله يا أكرم الكرماء :

(عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ)[١] .

وتستغفر ربك وتزداد نفسك الكريمة صفاء بعد أن التقت بأدب ربها السماوى .

إنه حديث رب العالمين إلى صفيه وخليله .

وهو أدب لا يقدر عليه إلا من قال له ربه :

(فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ)[٢] .

ولكن قريشا لا تقيم لهذه القيم الدينية والأخلاقية أى وزن أو اعتبار فتعميها العصبية ويشرد بها العناد لتضل الطريق إلى الله ، وتظل تتخبط وسط تيارات الحسد وأنواء التنافس القبلى والعناد الجاهلى ، حتى يصل الأمر بالوليد بن المغيرة أن يقول :

أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين .

ولكن رسالتك يا رسول الله لم تترك للسادة مكان الصدارة أمام جموع الكادحين والمستضعفين إلا بالعمل والتقوى .

---

(١) الآيات ١ — ١٦ من سورة عبس .

(٢) الآية ١١٢ من سورة هود .

ولم تجعل للمال وزناً فى قيم الرجال ومعادن النفوس وليس فيها مجال للعبث الوثنى يزن الرجال بميزان الشرف الدنيوى دون النظر إلى حكمة السماء وأقدارها .

وهنا يأتيك الوحى بالرد على آحلام سيد مكة :

(وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)[1] .

فالعظمة ليست فى الحسب والنسب والعزة ليست بالمال والسلطان ، وكم من الضعفاء الفقراء أكرمهم الله بنور الإيمان وجلاء البصيرة فطويت لهم الطريق ، طريق محبة الله فغنموا السكينة والرضا والعزة والكرامة .

وهؤلاء الرجال الذين سادوا الدنيا بسلطان القهر والغصب ذهبت سيرتهم أدراج الرياح .

تلك هى معيشتهم فى الحياة الدنيا ، أما رحمة ربك فلا يقسمها إلا هو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

تلك ناحية من نواحى العظمة فى رسالتك يا رسول الله ، جاءت لتلغى احتكار الأحبار والرهبان للرضا الربانى ، حين طمست العقول :

---

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف .

ودرست المعالم ، وجعلت رحمة الله لعباد الله دون واسطة ودون احتكار ، فهى له وحده يقسمها بين عباده كيف يشاء .

تهذيب سماوى وأدب ربانى يدعم الله بهما دعوتك يا رسول الله لتقيم دينا وتشيد إيمانا .

وأنت محور عناية السماء وحامل هذا العبء الجسيم تنتقل بين شعاب مكة فى هجير الوجود ، وما أقسى هجير مكة فى ذلك الحين. تتحمل كل هذا النصب من أذى قريش لك ولأصحابك فلا تزداد إلا إيمانا وتصميما على السير بالدعوة والعمل على نشرها ، يساندك الوحى ويلبى حوادث يومك ويرسم لك الطريق فى أدب عظيم وبيان معجز .

ولكنه التواضع لا يغيب عن جميع مواقفك فكثيرا ما كنت تتلو قول ربك :

(قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[1] .

فلتمض يا رسول الله إلى أن يتم الله عليك نعمته ، وينصرك نصراً مؤزرا ، ويفتح لك فتحا مبينا ... فالطريق ما زال طويلا .

---

(١) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

ولتكن هجرتك المستمرة إلى ربك بكل حركاتك وسكناتك لا تريد بها إلا وجه ربك ورضاه الذى لا ينتهى .

ولكن قريشا تضع أمامك العقبات ولا تترك وسيلة للتنكيل بالمسلمين إلا اتبعتها . فقد تعاهدت فى صحيفة كتبتها وعلقتها بالكعبة أعلنت فيها مقاطعتها لنبي الإسلام ومن تبعه من المسلمين لا بيع معهم ولا شراء ولا زواج ، ولا أى نوع من أنواع المعاملات وتستمر هذه المقاطعة ثلاث سنوات يذوق المسلمون فيها مرارة الحرمان : ويشعرون بجفاف الفقر وثقل العنت والضيق .

وكم تألمت كثيراً يا رسول الله وأنت ترى شحوب الوجوه من الجوع وقد خبا البريق من العيون ولولا الإيمان بالله لانفطرت القلوب.

وتصمد الفئة القليلة معك يا رسول الله أمام إعصار الكراهية وأنواء الحقد والقسوة .

ويحرك موقفك الصامد جماعة من الذين وقعوا هذه الصحيفة على رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة فيتم الاتفاق على نقضها وإنهاء مقاطعة المسلمين .

وقد نجحت هذه الجماعة فى تمزيق الصحيفة ، فتعود مع أهلك وجمعك من المسلمين إلى مكة بعد ثلاث سنوات من الألم والحرمان .

وتعرض عليك يا رسول الله هذه الجماعة من قريش أن تصالح قريشا منعاً للفتنة وتفاديا لتكرار المقاطعة وتدعوك ألا تذكر آلهتهم بشر .

وقد نسيت هذه الجماعة جوهر عقيدتك وسمو رسالتك ولم تدر أن الاستقامة فى الأقوال والأفعال شيمة نبوتك ، وليس هناك مجال للشرك والوثنية بجوار نداء الوحدانية .

وسرعان ما يأتيك الوحى يحسم الموقف بآيات ربك :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) [1] .

إن هذه الآيات تصور عظمتك يا رسول الله لأنها تمثل أمامنا كيف أدبك ربك فأحسن تأديبك .

والمجال هنا يا رسول الله مجال العقيدة التى لا تهادن ولا تساوم ، ولا مكان لعبث العابثين ولهو اللاهين من كفار قريش ، لهذا يقول لك ربك العزيز الحكيم :

(إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) [2] .

---

(١) الآيات ٧٣ — ٧٥ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٧٥ من سورة الإسراء .

والسماء ترعى السلوك النبوى ليس فى مجال العقيدة فقط بل تتعداه إلى مجال السلوك الإنسانى والعلاقات العامة بين جماعة المسلمين ولو كانوا فى حضرتك وأنت رسول السماء وخاتم النبيين والمرسلين .

فها هو الأقرع بن حابس التميمى ومعه عيينة بن حصن الفزارى يقولان لك يا رسول الله :

إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هذه الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت .

يقولان هذا وقد وجدا فى حضرتك بعض هؤلاء المستضعفين مثل خباب وابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال الذين شكلوا النواة الأولى لأمة الإسلام .

فكأنك قلت نعم أو طاف بك طائف مما قالا حبا فى الدعوة وأملا فى كسب أمثال هؤلاء إلى جانبها لتقوية أركانها وتدعيم مسارها وإنارة دنياها الكالحة فى ظلام مكة .

وهنا يأتى المدد الربانى كومضات كاشفة تهدى السبيل فى مدلهم المواقف :

(وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) [1] .

---

(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

ثم ينزل الأمين جبريل بعد ذلك بمحكم بيـان ربك :

(وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا * وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا) [1].

وتمر الأيام حتى يقول خباب بن الأرت معبرا عن ذلك الأدب الذى تأدب به أصحاب مجلسك رغم كل هذا المدد الربانى الذى نزل فى شأنهم وموضحا لنـا نفسية هؤلاء المستضعفين المستنيرين بهديك وهدى ربك :

كنا نقعد مع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغنا الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

وتلك صور من أروع الصور الإنسانية التى رأيناها فى رحابك يا رسول الله ، لأننا نرى فيها الاستقامة والصراحة فى الحديث بين رب العالمين ونبي العالمين ، ثم نرى فيها الأدب الإنسانى لسلوك الجماعة التى ترعاها السماء بالغداة والعشى ، والعظمة النفسية لك يا رسول الله واضحة أمامنا فى هذا الموقف ، لا أنفة ولا كبرياء ولا مساومة فى مجال العقيدة أو مجال البناء الاجتماعى لأمة الإسلام .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

وإنما استقامة وصدق فى إبلاغ رسالة ربك ولتتحمل نفسك الصافية هذا الأدب الربانى يهديك الله به إلى معارج السمو .

أية صورة رائعة تلك التى تطالعنا ونحن نقرأ جملة هذه الآيات مرات ومرات لنرى على بعد الزمان والمكان وقعها عليك .

طوبى لك يا رسول الله .

لقد أدبك ربك فأحسن تأديبك .

واذكر ربك اذا نسيت

قال تعالى :

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا *) [١].

فى هذا العصر وقد بلغ العلم المادى شأوا عظيما ، وطفر طفرات أقرب ما تكون إلى الخيال ، جعلت الكثيرين ينسون فى خضم دهشتهم قيم الدين ومبادئه ومفاهيمه ، بل ربما ظن بعضهم أن الأديان قد طمست معالمها وضاعت دروبها وسط عواصف المدنية العاتية ، وقد جهلوا أن العلم نتاج أولى لبعض ما يدعو إليه الدين .

ولو تخيلنا البشرية منذ فجر نشأتها بدون دين وبدون رسل تهدى وأنبياء تقوم الاعوجاج البشرى فى أممهم لوقفت الإنسانية فى جمود عقلى . ولم يكن حتى لكلمة الحضارة مكان فى قاموس حياتها .

أسوق هذا الحديث لشعور سائد فى النفوس بضعف الوازع الدينى وانعدام محاسبة النفس عن تصرفاتها فى خضم دنيا لاهية عابثة يجرى

---

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الكهف .

فيها الإنسان ويلهث خلف سراب الخداع وقد أعمته الأطماع عن رصيد الذنوب التي تتضاعف وتنمو فى مناخ أبعد ما يكون عن صلاحيته للقيم الدينية .

ولكننا يا رسول الله لا ننكر هديك وقيمك الدينية والأخلاقية ولا ننكر آثار هذا كله فى تقدم البشرية عل درب تطورها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من تقدم علمى مذهل .

ولا نبالغ ونحن نقرر والتاريخ يشهد أن البشرية ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا بعلمك الذى أقامه علماء أمتك أجيالا وراء أجيال حتى تلقفه الأوربيون وفجروا عصر نهضتهم إلى أن وصلت حالهم إلى ما نرى ، بينما وقفت أمتك منذ قرون حائرة ضائعة تحت ضغوط استعمارية وتيارات داخلية تزعزع كيانها وتؤود تقدمها .

ولقد ظلموا أمة الإسلام حينما حملوها أوزار أجيال من الاستكانة والنوم الذى فرض عليها .

فقد نشر الغرب المسيحى قلاعه واتجه إلى الشرق غازيا عسكريا وفكريا منذ ستة قرون ، وقد حاول بذلك طمس العقول وتقويض الحضارات حتى يستطيع أن يستنزف الموارد .

وكان له ما أراد . . . .

تلقف الشراع فأبحر به ، وتناول السراج فأضاء به ، وأظلمت دنيا الشرق قرونا طويلة حتى أراد الله لها أن تصحو من سباتها وتنفض

غبارها وتذكر تاريخها ولكنها حين نهضت رأت الدنيا غير الدنيا ، فسابقت الزمن لعلها تحصل على بعض ما فقدته من تكالب الغرب عليها وتمزيق أوصالها كالذئب المسعور .

وفى خضم هذا الصراع ضاعت المفاهيم الدينية تحت وطأة التعاليم الاستعمارية التى غرسها الغرب خلال قرون الاستعمار المظلمة حتى أفقد المسلمين الثقة فى علوم دينهم ونسوا أنه أساس وجودهم بل إنه ما جاء إلا لخير البشرية ودفعها إلى الأمام على درب التقدم والعلم والتطور .

وأسوق مقدمتى هذه المختصرة عن العلم والدين فى مجال الحديث عن صورة جميلة من الصور العديدة فى رحاب سيرتك يا رسول الله والتى تتصل بالعلم .

إنها صورة تروى لنا كيف حاول المشركون اكتشاف كنه علمك ومقداره ومصدره ، وقد استعانوا على ذلك بأحبار اليهود لعلهم يجدون لديهم ما تخيلونه عقبات فى سبيل دعوتك .

وخلال كل هذا نرى أن السماء بحكمتها لا تنسى السلوك النبوى تمده بمعجز البيان فقد جلس رجال قريش يوما بمكة يقلبون الأمر فى شأن ما جاء من آيات ربك الكريم ويبحثون بعقول أعماها الحسد عن هذا العلم الذى هبط عليك وهم لا ينكرون أنك الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وقد جهلوا أن ما جاءك إنما هو العلم اللدنى ، مصدره السماء يحمله الوحى الأمين من اللوح المحفوظ إلى القلب البصير المنير ليشع منه على أهل الأرض ليكون دستور الحياة وشريعة الدين والدنيا .

وفى مجلسهم هذا قام النضر بن الحرث يلخص رأى قومه فيما حزب بينهم من أمر دعوتك وأستأذنك يا رسول الله فى أن أورد مقالة النضر ابن الحرث فى هذا المقام لأنها تصور لنا رأى القوم فى جمال خلقك وصدق رسالتك رغم عداوتهم ورغم كبرياء الشرك الأجوف الذى حال بينهم وبين اللقاء السريع مع دعوتك السمحة الواضحة التى ما جاءتهم إلا بعز الدنيا وخير الآخرة .

قال النضر بن الحرث :

يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمرما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر . . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . . وقلتم : كاهن . . لا والله ما هو بكاهن . . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم . . وقلتم : شاعر . . لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه . . وقلتم : مجنون لا والله ما هو بمجنون . . لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . . يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم . . وهى مقالة تعبر — كما نرى — عن الحيرة والقلق من ألد أعدائك يا رسول الله ، النضر بن الحرث الذى قال سأنزل مثل ما أنزل الله . . هذا الذى طاف بفارس وتعلم سيرة ملوكهم وظن أن أساطيره أقرب إلى قلوب قريش من معجز البيان الذى جاءك به جبريل الأمين .

وتقرر قريش أن تبعث به ومعه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم الأنبياء لعلهما يأتيان إليها بجديد يجادلون به صاحب الدعوة .

وذهب الإثنان إلى المدينة فقابلا أحبار اليهود ووصفا لهم صاحب الدعوة وأخبراهم ببعض قولك يا رسول الله وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقال لهما أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم :

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول .. ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟

وسلوه عن الروح ما هى ؟

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

وعاد الإثنان إلى مكة يحملان ما ظناه اختباراً لعلمك حتى قالا :

يا معشر قريش . . قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . . قد أخبرنا اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها . . فإن أخبركم عنها فهو نبى وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

وتجمع القوم وجاءوك قائلين : يا محمد ! أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب .

وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها .

وأخبرنا عن الروح ما هي ؟

فتقول لهم يا رسول الله : أخبركم بما سألتم عنه غدا . . ونسيت أن تقول إنشاء الله .

وكتب السيرة تخوض ماشاءلها الله أن تخوض في هذه النقطة بالذات !! .

فتذكر أن الوحي انقطع عنك خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة وقالوا :

وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه .

وإن هذا كله يحزنك أشد الحزن ويشق عليك ما يتكلم به أهل مكة وما يرجف به المرجفون ، ثم يدلف جبريل الأمين من السماء إلى الأرض يحمل إليك آيات سورة الكهف ، فتقول لجبريل : لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظنا .

فيقول جبريل عليه السلام :

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَما خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)[1] .

---

(١) الآية ٦٤ من سورة مريم .

ثم يتلو عليك سورة الكهف مبتدئا بحمد ربك :

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا)[1] .

وتتوالى حبات الدر تأخذ مكانها فى عقد هذه السورة الرائعة التى أفحمت قريش ومن لقنها من أحبار اليهود .

ونحن يا سيدى يا رسول الله نرى أن الأنبياء كلهم بشر وليس البشر كلهم أنبياء ، وأن المؤتمن على خبر السماء لا ينسى ذكر ربه ولا يغفل عن مشيئة بارئه .

وأنك معصوم عن مثل هـــذه البديهيات فى دنيــا النبوة وعالم الرسالات . والموضوع كله كما جاء فى سورة الكهف لا يخرج عن أدب السماء لعبادها المؤمنين وتعزية ربانية لما يلاقيه المؤمنون المجاهدون من عنت وإرهاق فى سبيل الحفاظ على كيان العقيدة وتسلية لك ولصحابتك والمنضوين تحت لوائك بذكر ما كان من أصحاب المبادىء والقيم والعقائد ليكون سلوكهم مثلا ومقياسا كمفهوم أخلاقى :

(نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۞ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا)[2] .

---

(١) الآية ١ من سورة الكهف .

(٢) الآيات ١٣ — ١٤ من سورة الكهف .

فسرد آيات قصة الفتية أصحاب الكهف توضح للمسلمين كيف يكون الثبات على الإيمان وكيف تكون قوة العقيدة باعثا على الالتزام بها وبتعاليمها واعتزال الدنيا كلها فى سبيل صيانتها والحفاظ عليها .

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى فاعتزلوا الناس وتركوا مصالحهم ودنياهم إلى وحشة الكهف لا يؤنسهم إلا كلبهم .

هذا المعنى الذى يسوقه النظم القرآنى الفريد لأصحاب القيم والمثل والمبادىء فى كل زمان ومكان ليرسم لهم سبل التعامل مع دنيا التكالب على الأثرة والأنانية وحب النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة ، ويوضح لهم نهج عالم مثالى يبنى على التضحية والشجاعة والثبات أمام طوفان الظلم وإعصار الباطل ، لتبقى فى النهاية الخطوط الواضحة العميقة لكل حق ولكل عدل ولكل قيمة أخلاقية ولو كان السبيل إلى ذلك هذا الأسلوب السلمى الذى سلكه الفتية المؤمنون .

إنها بهذا قصة الهجرة إلى الله .

والفرار بالدين والعمل والسلوك إليه .

ثم تتوالى حبات الدر :

(وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا)[١] .

---

(١) الآيات ٨٣ — ٨٥ من سورة الكهف .

وقصة ذى القرنين توحى للمسلمين بتمكين الله جل شأنه لبعض عباده فى الأرض وإيتائهم القوة والقدرة على الإصلاح والفصل بين أهل الفساد ، وعزلهم عن خير العباد بإقامة هذا السد العظيم الذى أقامه فى وجه يأجوج ومأجوج .

إلا أن عظمة الخالق المبدع إذا حان الأوان المعلوم جعلته صعيدا جرزا :

(فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا) [1] .

وهو سياق يتمشى مع سيرة أصحاب الكهف من ثورة على الفساد والطغيان ومحاولة عزله وتجنبه .

هؤلاء باعتزال الدنيا إلى الكهف .

وهذا بالسياحة شرقا وغربا يعذب الكافرين ويقول للمؤمنين من أمره يسرا .

ثم ينتهى به الأمر إلى إقامة هذا السد المنيع الصلد لعزل يأجوج ومأجوج عنوان الفساد عن دنيا الخير وعالم الرشاد ، حتى :

(. . . نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا) [2] .

وهو تركيز على أن الهجرة لله وأن إلى ربك المنتهى .

---

(١) الآية ٩٨ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٩٩ من سورة الكهف .

ثم تستمر كتب السيرة — بحسن نية — فتورد الإجابة على المسألة الباقية التى علق اليهود إيمان قريش برسالتك عليها :

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[1] .

ولكن السورة بمعجز بيانها تعطى الدرس الواضح على قدرة العليم الخبير جل شأنه فى الرد على عبث العابثين الذين خيل إليهم أن مجادلاتهم الكلامية ستعوق سير الدعوة وتؤود تقدمها فيقول جل شأنه :

(قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا)[2] .

ذلك قدر علم الله ومقدار كلماته ..

سبحانك يارب . . . يا عليم . . . يا خبير . . .

ولكن ما يهمنا إبرازه فى هذه الصورة الفريدة من رحاب سيرتك ، ذلك الأسلوب الفريد المعجز الذى يلفت النظر بلطائف نسائمه إلى تذكير المؤمنين بربهم . . ويأمرك يا رسول الله فى لطف لطيف وحديث

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الاسراء .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

يكاد يشبه الهمس ألا تنسى مشيئة ربك إذا وعدت أو عزمت على عمل فيقول جل شأنه :

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * إِلَّآ أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَداً)[1] .

وأنت العالم لحدود ربك الكريم . .

تكل أمرك إلى الله وتكل دنيـاك وآخرتك لبـارئها .

ألم يقل جدك إبراهيم من قبل عن ربه :

(وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)[2] .

فهل يفوتاك شيء من هذا وأنت دعاء إبراهيم واستجابة الرحمن الرحيم .

معاذ الله ياسيدى يارسول الله أن تنسى ذكر ربك .

وأنت الأمين حفيد إبراهيم الذى وفى .

والأمر كله لا يعدو أن يكون هديا من هدى ربك وأدبا سماويا لخير أمتك ليعتمد العباد على ربهم ولا يغتروا بقوتهم ولا يقدموا على عمل إلا والله حسبهم وهو وليهم ، ذاكرينه دائما ، لأن فى هذا الذكر عرفانا بعلم الله وقدره وتذكيرا دائما للوحدانية دين السماء وشريعة الأديان .

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الكهف .

(٢) الآيتان ٧٩ ، ٨٠ من سورة الشعراء .

وأنت يا رسول الله قدوة المسلمين .

وأسوة المؤمنين . .

فنسأل الله أن يقوينا على نهج نهجك والنسج على منوالك . .

وما نحن ببـالغى بعض ذلك إلا بشق الأنفس . .

لأنك على خلق عظيم . .

وأدبك ربك فأحسن تأديبك .

ما زاغ البصر وما طغى

قال تعالى :

(سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ *)[1] .

أظلمت الدنيا فى مكة يوم حاول المشركون إطفاء شعلة الإسلام التى بدأت تنير القلوب وتهدى النفوس ، وطمست الحقيقة يوم وقف زبانية الوثنية ودعاة الشرك يحاولون إزالة المعالم التى بثتها الدعوة فى مجتمع مكة وما حولها ترشد الناس إلى دروب الخير .

وشرد الناس فى متاهات الضياع وقد كاد صوت الحق يختنق وسط صيحات الاستهزاء بالدين الجديد ، وهجير مكة يلفح قلوب المؤمنين ، وسياط سادتها تلهب ظهور المستضعفين الذين لا يملكون غير شعارهم : أحد . . أحد . . .

وسط كل هذه الكربات تموت خديجة ويموت أبو طالب لترى قريش أن الفرصة سانحة لزيادة حملاتها المسعورة على الدعوة .

وازدادت قلوب أهل مكة صلابة وقسوة ، فها هو سفيه قريش ينثر التراب على رأسك يا سيدى يا رسول الله وقد قامت إليك إحدى بناتك تبكى وهى تزيل عنك التراب فتقول لها :

---

(١) الآية ١ من سورة الإسراء .

يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك . ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب . .

وتجمدت الدعوة وسط جليد النفوس وصلابة القلوب وقسوة العداء .

وتقرر الخروج وحدك يا رسول الله إلى ثقيف بالطائف تلتمس متنفسا جديدا للدعوة وميدانا أرحب تتحرك فيه العقيدة . ويلجأ إليه المسلمون .

ولكنك ما تكاد تصل إلى الطائف حتى ترى أنها لا تقل إظلاما عن مكة ، ولا تقل القلوب فيها بشاعة وقسوة عن تلك التي خلفتها في دروب مكة وشعابها . هؤلاء الذين واجهوا نداءات الحق والرحمة بصيحات الاستهزاء والكراهية

وكما امتلأت مكة بالسفهاء . انقلب أهل الطائف كلهم إلى سفهاء !!

فما إن تعرض دعوتك حتى يقول لك أحدهم :

ما وجد الله أحدا يرسله غيرك .

ويقول سفيه آخر :

والله لا أكلمك كلمة أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول : لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك . .

تبـا لهؤلاء القساة الجفاة ؟؟

ولكنها إرادة الله وقدره ، فقد ولى عز الدنيا ورضا الآخرة وخلود الذكر عن الطائف حين ردت دعوتك يا رسول الله وأغلقت قلوبها عن ندائك .

سيكون هذا الخير من نصيب يثرب . دار هجرتك يا رسول الله ..

وسيكون خير الدنيـا والآخرة من حظ هؤلاء الذين آووا ونصروا ..

وتنصرف عائدا إلى مكة . ولكن هؤلاء القساة الجفاة يغررون غلمانهم وعبيدهم بك يا رسول الله ، يسبونك ويصيحون بك وقد أدموا قدميك الشريفتين بالحجارة فتلجأ إلى بستان لعتبة بن ربيعة تستظل بكرمة عنب وتريح نفسك من هذا الموقف المشين لسادة ثقيف هؤلاء الغلاظ الأكباد الذين سينجبون أقسى قلب وأجفى طبع عرفه الإسـلام والذى سيخوض إلى السلطة بحارا من الدماء وأنهـارا من العداء والكراهية والقسوة ، إنه الحجاج بن يوسف الثقفى الذى سيقرن اسمه بزياد بن أبيه بعد ذلك إذا ذكر الإرهاب والتنكيل .

حقا يا سيدى يا رسول الله لقد ولت الفرصة وأفلتت من الطائف وأعرض عنها الخير يوم ردتك هذا الرد العنيف .

يومها رفعت يديك إلى السماء وأنت تستند إلى الكرمة فى بستان عتبة وشيبة ابنى ربيعة تناجى ربك :

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

وتنصرف عن الطائف يائسا من إيمانها عائدا إلى مكة وفيما أنت بنخلة وقد قمت من جوف الليل تصلى لربك يمربك نفر من الجن يؤمنون برسالتك ويستمعون لقرآن ربك فيؤمنون ويجيبون ليكون فى ذلك بعض العزاء من ربك اللطيف الذى يقص عليك خبر هؤلاء النفر من الجن فى سورة الأحقاف :

(وإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)[1] .

وتعود بعد ذلك إلى مكة تواجه المعركة الضارية التى تشنها قريش فى وجه الدعوة . وتمضى الأيام والموقف على ما هو عليه وأنت أكرم الرسل وأقربهم إلى الله جل شأنه . فلتكن رحلة الإسراء والمعراج علامة الرضا ودليل الكرم من رب العالمين .

ولا يتأتى لأحد منا أن يناقش الإسراء والمعراج بذهن مادى يهوى التجربة ويغريه المنطق البشرى حتى فى رسالات السماء وسير الأنبياء :

ولو أن القرآن الكريم لم يذكر التفاصيل الخاصة بالإسراء والمعراج إلا أنه يؤيد بآياته الكريمة ما ورد فى رحاب السيرة العطرة من صور مشرقة .

وأول ما يطالعنا فى الإسراء والمعراج تلك الصورة النادرة المضيئة وسط دياجير الدنيا وظلمات الشرك فى مكة . يوم أسرى بك الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . يوم حملت على البراق — دابة الأنبياء — ومعك جبريل الأمين حتى انتهيت إلى بيت المقدس

---

(١) الآيات ٢٩ – ٣٢ من سورة الأحقاف .

فجمع لك الأنبياء ورأيت إبراهيم وموسى وعيسى فقدمك جبريل عليه السلام لتكون لهم إماما :

(سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)[1] .

وإمامتك للأنبياء شرف كبير خصك الله به وخص به أمتك . فهو القائل جل شأنه فى كتابه المنزل :

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[2] .

ويقول جل شأنه :

(وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ)[3] .

---

(١) الآية ١ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٨١ من سورة آل عمران .

وقد صدق الله وعده حين أنزل عليك فى صورة الضحى :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [1] .

فأنت الشهيد على الأمم يوم تكون الشهادة هى مقدمة الحساب .

وأنت موضوع الميثاق بين رب العزة ورسله إلى أمم الأرض .

فإمامتك الأنبياء فى المسجد الأقصى إمامة حقة بدعوتك ورسالتك وشهادتك وهذه الإمامة فوق أنها رضا ربك وعطاؤه فهى تمثل إمامة أمتك لأمم الأرض ، فهى الأمة الوسط بين الأمم وهى الشاهدة على الناس أجمعين ، وأنت يارسول الله الشاهد يوم يكون للشهادة حساب دقيق .

والإسراء والمعراج رحلة نورانية عالية القدر ، أعدها لك الله لتطيب نفسك ويطمئن قلبك ولترى وتعاين إمامتك وإمامة أمتك لأمم الدنيا .

ثم لترى أفضال ربك عليك حتى ترى آياته .

فما إن تنتهى من صلاتك فى المسجد الأقصى حتى يؤتى بالمعراج تصعد به مع جبريل الأمين إلى السموات السبع تاج من أبوابها سماء بعد سماء ، ترى آدم ونوحا وإبراهيم ويوسف وموسى وهرون وعيسى وإدريس ، وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين . . هؤلاء

---

(١) الآية ٥ من سورة الضحى .

الأنبياء الذين أخذ الله عليهم الميثاق ليؤمنوا بك وينصروك حتى إذا انتهيت إلى السماء السابعة ورأيت الخليل إبراهيم عليه السلام صعد بك جبريل الأمين إلى سدرة المنتهى حيث جنة المأوى ، تجاوزت هذا كله لأن مقامك عند ربك ياسيدى يارسول الله فوق ذلك كله .

تجاوزت ما فى السموات والكون كله بما فيه من ماديات إلى رحاب ربك لتتناول منه يارسول الله ثمرة رحلتك المباركة . ومنحته إلى عباده المؤمنين وهى الصلاة : مناجاة الصالحين ، وقرة عين المقربين .

فى هذا الموقف رأيت يارسول الله مالم يستطع لسانك أن يصفه لأنها لحظة من لحظات الرضا التى أنعم الله بها عليك وأنت تقف خاشعا فى رحاب ربك يخاطبك وتخاطبه ويفرض عليك وعلى أمتك الصلاة ولتعاين بنفسك مقامك الكريم من ربك العزيز الحكيم .

كيف تم هذا ؟ وماذا دار فى هذا اللقاء ؟

لقد أردت أن تطويه عنا يارسول الله إكبارا لربك وإعزازا لهذه المناسبة ، وتكريما لهذا المقام واحتراما لهذه الرحاب وتأدبا فى هذه المواقف

يكفى أن نعلم انك بلغت سدرة المنتهى حيث جنة المأوى ثم تجاوزتها إلى رحاب ربك ليمنحك ثمرة من ثمرات عقيدتك وهى الصلاة لتكون ركنا من أركان دينك .

وفى هذا الموقف يحدثنا القرآن الكريم فى سورة النجم :

(وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ *)[1] .

وتعود يارسول الله إلى السموات السبع لتعاين تلك الفئات التى تمثل عينات من السلوك الأخلاقى للبشرية :

هؤلاء أكلة أموال اليتامى فى أيديهم قطع من نار كالأحجار يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم .

وهؤلاء الزناة بين أيديهم لحم طيب يتركونه ويأكلون اللحم الخبيث النيء .

وهؤلاء خطباء الفتنة تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقارض من حديد.

---

(١) الآيات ١ — ٨ من سورة النجم .

عينات رمزية ونماذج لأخلاق هؤلاء الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ونحن لا يتأتى لنا أن نساير هؤلاء الذين يرفضون مثل هذه الصور التى زخرت بها كتب السيرة العطرة لأنها تمثل لدينا كيف ترتبط الأخلاق بالدين قبل أن ترتبط بأى شئ آخر .

إن الأخلاق والفضائل قيود فى نظر الكثير من المجتمعات الحديثة ولكنها فى نظر عقيدتك يارسول الله رابطة بين العبد وربه فنبعها إلهى مصدره السماء ، وهى وسيلة الولوج إلى رحاب الله وبدونها لا يمكن أن تكتمل شخصية الإنسان المؤمن الكامل .

هذه هى ثمرات رحلتك النورانية إلى رحاب ربك يارسول الله :

معرفة واضحة ومعاينة ذاتية لمكانك السامى عند ربك الكريم .

وصلاة موقوتة كركن من أركان دينك الحنيف .

ونماذج من الأخلاق والسلوك تربطه بالقيم الدينية وأوامر الله ونواهيه .

ثم هناك نتيجة كانت ضرورية لهذه الرحلة وهى تصفية هؤلاء الذين لم يرق إيمانهم إلى المستوى اللازم لنصرة العقيدة فانتكس ضعيفو الإيمان حينما سمعوا بهذه الرحلة المباركة ؛ ولم يدر بخلدهم أن قدرة الله فوق إدراكهم وفوق تصورهم بل وفوق خيالهم .

وتمت هذه التصفية فعلا فانتكس من انتكس وارتد عن الإسلام خلق كثير .

ولكن تطالعنا صورة مشرقة جميلة لهذا الصحابى الجليل أبو بكر الذى لم يكد يسمع قصة الإسراء والمعراج حتى قال قبل أن يراك أو يسمع منك يارسول الله :

لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله أنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد ما تعجبون به .

ثم يتوجه إليك يارسول الله ويسألك الخبر ويطلب منك وصف المسجد الأقصى فتصفه له وهو يقول صدقت أشهد أنك رسول الله وهنا تقول له : أنت أبو بكر الصديق .

ذلك منهج الإسلام فى فهم قضاياه الربانية : الصديقية .

ولكن الدنيا غير الدنيا يارسول الله . والرجال غير الرجال والعقول غير العقول ، والنفوس قد علاها الصدأ ، والأخلاق بليت والقيم تعفنت ، وتحولت المفاهيم ربما لأضدادها .

فالدين رجعية والأخلاق قيود والإيمان شعوذة .

وتطور العلم ليكون مخلب قط للكفر والإلحاد .

وقامت فئة من الناس تضع الموازين لسيرتك ، تقيسها بمقاييس الأجنبى البعيد عن مفاهيم دينك .

نستغفر الله ياسيدى يارسول الله :

إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .

وإلى رحابك الطاهرة نتوجه مستلهمين سيرتك العطرة تزيل صدأ النفوس وتنير ظلام القلوب .

سيدى يارسول الله .

نتوسل بك إلى العلى القدير أن يرفع الغمة عن دينه ليكون هو دستور حياتنا ، وأن يرفع هذه السحب التى رانت على القلوب فخفيت المعالم وطمست المفاهيم .

وأن يجنبنا محنة الطائف يوم ردتك ليذهب عنها عز الدنيا والآخرة .

ويوم نقبل يارسول الله على عقيدتك — بعد هذا الإعراض الطويل — سنعلم إلى أى طريق يجب أن نسير .

———————

لا تحزن ان الله معنا

قال تعالى :

(إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا . . .)[1] .

تجمدت الدعوة وسط بحار الكراهية والحقد ، واستطاع المشركون حصارها فلم يسلم مشرك واحد طوال السنوات الثلاث التى سبقت الهجرة ، لاقى فيها المسلمون ألوانا من العنت وصنوفا من العذاب .

ولكن نداءك لم ينقطع يارسول الله وأنت تدعو القبائل فى المواسم قائلا :

(يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم وإذا آمنتم كنتم ملوكا فى الجنة) .

ولكن قريشا تبعث سفهاءها وعلى رأسهم أبو لهب ينادى :

لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

فتعرض عنك القبائل وترد أقبح الرد :

أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك .

ولكن أنَّى للرسالات تطمسها الأهواء والأحقاد ،

وأنى للنفوس العالية تقف أمامها العقبات .

وإمداد السماء لا ينقطع ورضاها لا ينضب .

وقد آن لهذا النبع الهادئ الصغير للدعوة الإسلامية أن يتحول إلى نهر عذب يغذى الدنيا بفضائل إلٰهية وشرائع سماوية حتى آخر الزمان :

ويسوق الله إليك مدده مع هؤلاء النفر من الخزرج وقد قابلتهم عند العقبة فى موسم الحج فيدور معهم الحوار الآتى :

من أنتم ؟

نفر من الخزرج . .

أمن موالى يهرد ؟

نعم . .

أفلا تجلسون حتى أكلمكم :

بلى .

ويجلس هؤلاء النفر نواة النصر ، لتعرض عليهم الإسلام وتتلو القرآن .

وكان هؤلاء النفر من الخزرج قد عاشروا يهود يثرب وعلموا منهم أن هناك نبيا قد أظل زمانه ، فقال بعضهم إلى بعض ؟ تعلمن ، والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

وهنا تتفتح النفوس وتسموا الأرواح وترتفع الجباه لتعرف حقيقة الوجود وتعلم كرامة الإنسان الذى أبى الله عليه أن يسجد لصنم أو يخضع لوثن .

وتؤمن لك هذه النواة الصالحة وتصدقك ويقول عاقلها :

إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

وكان هذا المدد الإلهى ستة نفر . . هم أول الغيث .

وعادوا إلى يثرب على أن يكون موعدهم معك يارسول الله هو نفس الموعد من العام القادم . . فدعوا قومهم إلى الإسلام ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لك ولدينك .

وبعد عام وافى الموسم منهم اثنا عشر رجلا . . لقوك بالعقبة ليبايعوك وهى العقبة الأولى فبايعوا : (على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفترينه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف) .

فتقول لهم : فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم[6] وإن شاء غفر لكم .

وتبعث معهم يارسول الله مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام .

وبعد عام خرج الأنصار إلى الحج وهم سبعون رجلا من الأوس والخزرج حتى قدموا إليك ومعهم امرأتان وواعدتهم منى وسط أيام التشريق لتجتمع بهم ومعك عمك العباس : الذى وقف يقول :

يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم : وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا ، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه : فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور :

لقد سمعنا ما قلت وإنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتقدمت بذاتك الكريمة يارسول الله تتلو القرآن وتدعو إلى الله وترغب فى الإسلام وتقول لهم :

أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ،

وهنا يأخذ البراء بن معرور بيدك الكريمة ويقول : والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا — أى نساءنا — فبايعنا يارسول الله فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

وقام أبو الهيثم بن التيهان قائلا : يارسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا وإنا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتقول له : بل الدم الدم — والهدم الهدم — أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، وتختار منهم اثنى عشر نقيبا تقول لهم : أنتم على قومكم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى .

وبايع القوم وانصرفوا إلى المدينة .

ولكن قريشا تكتشف فى النهاية أنها كانت بلهاء ، وأن الدين الجديد قد وجد له أنصارا كثيرين فى المدينة وأن الصيد يفلت من يدها وتحت نظرها وهى ترى المسلمين يهاجرون من مكة إلى المدينة وقد مضى عليهم ثلاثة عشر عاما يقاسون ألوانا من الحقد والكراهية والقسوة والعنت ولكن هديك يارسول الله قد أذهب أثر ذلك من نفوسهم وبدا المهاجرون كوفود فدائية خلفت وراءها فى مكة المال والولد وضحت بالغالى والثمين حبا فى الله ورسوله .

ولم تكن الهجرة بعد هذه المسيرة الشاقة التى قطعتها الدعوة فى مكة هجرة إلى الدعة ؛ بل كانت هجرة إلى الكفاح والجهاد على أرض جديدة :

هجرة إلى العمل فى سبيل إعلاء راية الدين .

هجرة إلى مبادئ الخير بعد أن كادت تطمسها وثنية قريش .

هجرة خالصة لله ورسوله حيث يقوم دين جديد كتب الله له النصر وحيث تحيا أمة أراد الله لها الخير والرفعة والرشاد .

ورغم مؤاخاتك يارسول الله بين المهاجرين والأنصار حينما استقر بك المقام فى المدينة ، ورغم الروح العالية والتسامح النادر الذى قابل به الأنصار ، هؤلاء الوافدين من مكة حتى إن أحدهم وهو سعد ابن الربيع وقد نزل عليه عبد الرحمن بن عوف يقول له : هذا مالى فأنا أقاسمكه ، ولى زوجتان فأنا أنزل لك عن إحداهما .

ولكن عبد الرحمن بن عوف يلخص رأى المهاجرين فى الهجرة وعدم ركونهم إلى الكسل ومقاسمة الأنصار أرزاقهم فيقول له : بارك الله لك ، ولكن إذا أصبحت فدلونى على سوقكم ونخرج يتاجر ويربح الكثير .

فالهجرة عمل وبناء وكفاح وجهاد .

وهى تضحية كبيرة فى سبيل الله وفى سبيل الدعوة .

تضحية من المهاجرين الذين باعوا دنيا مكة بكل ما فيها من الأهل والولد والمال والمتاع إلى دنيا الله وصلتها الوثيقة بالآخرة .

وتضحية من الأنصار الذين آووا ونصروا وتقاسموا الثمرة عن طيب خاطر مع الوافدين من مكة ؛ وتعرضوا لحرب الأحمر والأسود من الناس يوم بايعوا بيعة العقبة .

خرج المهاجرون أرسالا إلى المدينة وأنت تنتظر يارسول الله الإذن بالهجرة .

ويأتيك الصديق كل يوم يستأذنك فى الهجرة فتقول له : لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا .

وهنا تجمع قريش أمرها لتمنعك من الهجرة أو تتخلص منك لتقضى على الدعوة كلها ؛ فتجتمع فى دار الندوة وتوافق على اقتراح أبى جهل بأن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا ثم يعطى كل منهم سيفا صارما يضربونك به ضربة رجل واحد : قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وبهذا لا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا .

وهى فكرة باركها الشيطان ، ولكن الوحى الأمين يأتيك من ربك العليم الخبير ينبئك بالخبر ويأمرك ألا تنام فى مضجعك تلك الليلة وتخرج إلى أبى بكر وتقول له :

إن الله قد أذن لى فى الخروج .

فيقول لك : الصحبة يارسول الله .

فتقول له : نعم .

وتأمر عليا فينام فى فراشك ويتشح ببردك الحضرمى الأخضر حتى لا يخلص إليه شئ يكرهه ويجتمع القوم أمام بيتك وكل يمسك سيفه ولكنك تخرج عليهم وهم جلوس على الباب وتأخذ حفنة من تراب وتذرها على رؤوسهم وتتلو قول ربك :

(يسٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ (١) * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ *)

وجاءهم رجل فقال : ما تنتظرون ها هنا خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد وما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟

ويضع كل منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب .

وينظرون فيرون عليا على الفراش ويعلمون أخيرا أن الله قدر غير ما قدروا وفى ذلك يقول جل شأنه :

---

(١) الآيات ١ — ١٠ من سورة يس .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[١] .

وتبدأ أولى خطوات الهجرة إلى غار ثور . .

ولكنك يارسول الله تلقى نظرة على مكة وفيها البيت الحرام وفيها الأهل والعشيرة وتقول :

والله إنك لأحب البلاد إلى نفسى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت .

وتمضى مع الصديق إلى الغار واثقا من نصر الله وعودتك إلى مكة داعيا ومبشرا بدين الله .

وتدخل الغار حيث أمر الله سبحانه شجرة فنبتت وأمر العنكبوت فنسجت على باب الغار وبجوارها حمامتان وحشيتان فوقعتا بفم الغار حتى إذا أقبل فتيان قريش بأسيافهم وعصيهم وهراواتهم وكانوا من الغار قدر أربعين ذراعا نظر أولهم فرأى الحمامتين فرجع يقول :

رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس به أحد : وتسمع ذلك يارسول الله لتعرف أن الله قد درأ عنك .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

ولكن الصديق ما يكاد يسمع حوار المشركين أمام الغار حتى يبكى خوفا عليك يارسول الله وإشفاقا من موقف يخياله رهيبا مريعا لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا .

ولكنك تبتسم يارســـول الله وتقول له : ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

وفى ذلك يقول جل شأنه :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[1]) .

وفى هذه الصورة المشرقة لا يسعنا إلا أن نشير إلى بعض الشخصيات التى عمرت نفوسها بحبك يارسول الله . ونشأت تحت ظلال عقيدتك ، فعرفت فضلك وامتلأت قلوبها بنور هديك ، فكان لكل منها مكان فى هذه الصورة :

هذا أبو بكر الصديق الذى خاطر بنفسه وهو يعلم أن قريشا لابد ستتبع هذا الركب وتحاول أن تنشب أظافرها وأنيابها تمزق أوصاله يحمل ماله كله ليكون تحت تصرف صاحب الدعوة حينما تحط الرحال فى يثرب .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

وكان أبو بكر يسبقك يارسول الله مرة ويتبعك مرة أخرى فتسأله عن ذلك فيقول لك : يارسول الله أذكر الرّصد فأسبقك وأذكر الطلب فأتبعك .

وهذا عامر بن فهيرة مولى الصديق وراعى غنمه والذى كان يقوم بتوصيل اللبن إلى الغار .

وهذا عبد الله بن أبى بكر الذى كان عليه تبليغ أخبار مكة وتحركات كفارها إلى الغار حتّى لا يفاجأ أصحابه بتصرف غادر .

وهذه أسماء بنت أبى بكر التّى تولت مهمة حمل الطعام من بيت الصديق إلى الغار ، والتّى نسيت والركب يتحرك إلى المدينة أن تصنع للطعام ما تعلقه به فشقت نطاقها وجعلت منه عصاما علقت به الطعام فى الراحلتين فسميت ذات النطاقين .

وهذا عبد الله بن أريقط الدليل الذى ظل على شركه ولم يسلم ولكنه رضى أن يكون دليلا لأكرم ركب وأخطر هجرة كان لها أكبر الأثر فى تاريخ الإنسانية .

وتبدأ الرحلة المباركة إلى المدينة بعد ثلاث ليال فى غار ثور .

ويعلم الله كم تتألم نفسك الصافية وأنت تغادر أرض الآباء والأجداد وتولى ظهرك البيت الحرام بعد أن حرمك المشركون حرية العبادة فيه فيطمئن نفسك بمحكم آياته :

(إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ)[١].

وتمر يارسول الله بركبك المبارك على خيمة أم معبد الخزاعية ويسألها الركب شيئا من التمر أو اللحم فلا يصيب عندها شيئا .

ولكنك يارسول الله تنظر إلى شاة عجفاء فى ركن الخيمة قد خلفها الجهد عن الغنم وتستأذن أم معبد فى حلبها وتذكر اسم الله وتمسح ضرعها وتقول : اللهم بارك لها فى شاتها .

وتحلب حتى تشرب أم معبد ويشرب الركب كله .

وتحلب مرة أخرى وتتركه لأم معبد .

ويعود الزوج يسوق غنمه واعترته العجفاء ويسأل عن مصدر اللبن ويعجب أشد العجب حين تقول له أم معبد : مر بنا رجل مبارك وكان حديثه كذا وكذا . . . .

فيقول الزوج : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى يُطلب ؛ صِفيه لى يا أم معبد ، ونحن نستأذنك ياسيدى يارسول الله أن نورد هذا الوصف الجميل المشرق النادر الذى جاء على لسان هذه الأعرابية أم معبد وما سقنا القصة إلا لسماعه :

(رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، متبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثُجلة ولم تزر به صعلة ، وسيم ، قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى

---

(١) الآية ٨٥ من سورة القصص .

أشفاره وطف ، وفى صوته صحل . أحور أكحل أزج ، أقرن ، شديد سواد الشعر فى عنقه سطع ، وفى لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء وكان منطقه خرزات نظم يتحدرن ، حلو المنطق فصل . لا نزر ولا هذر أجهر الناس وأجمله من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب ، ربعة لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه عين من قصر غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود لا عابس ولا مفند) .

لله درك يا أم معبد ! ! إننا نغض الأبصار حياء وخشوعا ونحن نتصور هذا الوصف لسيد المرسلين وأكرم الأنبياء على رب العالمين .

لو كان هذا وصف أم معبد لك يارسول الله وقد شرفها مقامك الكريم لحظات فكيف تكون الحقيقة الوضاءة ؟

ويخرج الركب من خيمة أم معبد متوجها إلى يثرب حيث يقابل بالنفوس تشدوا والأرواح تهتف والمهج تغنى :

طلع البـــدر علينــــا   من ثنيـــات الـــوداع
وجب الشـــكر علينـا   ما دعـــا للـــــه داع
أيهـــا المبعوث فينـــا   جئت بالأمـــر المطـاع
جئت شرفــت المدينـة   مرحبـــا يا خـــير داع

ما أحوجنا إلى هجرة كهجرتك يارسول الله فى زمن ضاعت فيه المفاهيم ، وتكالبت النفوس على حب الدنيا . حتى أصبح الهم والقلق والحسد أعمدة الحياة فى دنيا لا تعرف السكينة .

ما أحوجنا إلى هجرة بالنفوس إلى رحاب الله لنرى حقيقة الحقائق ونور الأنوار يهدى ضالتنا فى عالم كاد يطبق على القيم الدينية والخلقية ويفسح المجال لكل غث وتافه من القول والعمل .

ليتهم يعرفون معنى الهجرة ومفهومها السماوى حينما عبرت عنه بحديثك الشريف .

(إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

بهذا المفهوم وحده تستقيم الأخلاق وتحيا الأمم وتقوم الحضارات .

اللهم إياك ندعو أن تجعل أعمالنا هجرة إليك .

وعبادتنا إليك فرارا إليك .

درس الجهـاد

قال تعالى :

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ *) [١] .

سيدى يا رسول الله .

سيظل جهادك وكفاحك مثلا لأمتك ما بقى المسلمون فى حاجة إلى الجهاد والكفاح .

فقد وقفت دائما على رأس هذه الفئة المؤمنة مثالا لهم فى سلوكك وعملك لا تبتغى بهما غير وجه الله لتكون أسوة للأسرة الإسلامية .

ولم تجعل العبادة وقفا على النسك ، بل صار العمل عبادة والكفاح عبادة والجهاد عبادة .

وكانت حياتك كلها يا رسول الله نضالا وكفاحا وجهادا لا يفتر فى سبيل إرساء قواعد الدعوة بمفهومها الربانى ودعم أسسها السلوكى فى نفوس أمة الإسلام لتكون هديا لأمم الدنيا . ورب العزة يقول :

---

(١) الآية ٢٠ من سورة التوبة .

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . . .)[١].

نعم . أنت الأسوة الحسنة يا رسول الله والمثال الطيب والقدوة المضيئة فى معارج السمو والرفعة لمن أراد وجه ربه .

وتستوى فى سيرتك يا رسول الله صور الرحمة والعفو مع صور الكفاح والجهاد فى سبيل الله .

لم تترك غزوة لم تشارك فيها ، وإذا حمى الوطيس وثار غبار المعركة فأنت أقرب الناس إلى العدو ، يحتمى بك أصحابك .

ومواقفك كلها ثبات فى وجه العدو فى لحظات قد تنخلع لها قلوب الرجال .

ولا يفوتنا ونحن نعرض بعضا من الصور المشرقة فى رحاب سيرتك العطرة يا رسول الله أن نعرض صورة لجهادك وكفاحك وقد امتزجت بلمحات من عفوك وكرمك ونفحات من سماحتك وجميل خلقك .

خرج المسلمون فى نيف وثلاثمائة منهم إلى بدر لا يريدون غير أبى سفيان والركب القادم معه من الشام لايرونه إلا غنيمة ثم ترد إليهم شيئا من أموالهم التى خلفوها فى مكة قسرا ، وهم لا يظنون أن يكون هناك قتال كبير بين الجمعين وفى ذلك يقول جل شأنه :

---

(١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [1].

ولكن أبا سفيان يفلت بعيره وركبه ويبعث إلى قريش يستنفرها ضد المسلمين فتخرج فى ألف من رجالها وفرسانها تبغى استعراض قوتها فى بدر وتصمم على أن تقيم ثلاث ليال فيها حتى يعلم أهل الحجاز والعرب جميعا ما هى فيه من منعة وقوة .

وتقف على رأس هذه الفئة المؤمنة يا رسول الله نواة أمتك وعماد قوتك وأنت فى الطريق إلى بدر وتقول : أشيروا على أيها الناس ، وقد علمت بتعبئة قريش ومسيرتها إلى بدر :

وهنا نهض أبو بكر الصديق فقال فأحسن :

ونهض عمر بن الخطاب فقال فأحسن .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) . . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد — مدينة بالحبشة — لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه :

وقام سعد بن معاذ فقال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع

---

(1) الآية ٧ من سورة الأنفال .

والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ؛ ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقربه عينيك ، فسر بنا على بركة الله .

وهنا تعلم يا رسول الله أن غرسك قد أثمر وأن هديك قد جعل هؤلاء النفر على قلتهم طلائع زحف فدائى لن يقف مده إلا يوم تعرض النفوس عنه ويلهيها بريق الدنيا عن جميل سيرتك .

وكانت هذه الكلمات التى تكلم بها صحابتك من المهاجرين والأنصار هى العلامة الواضحة لصدق النفس وجمال الروح وسمو الأخلاق لهؤلاء الذين أطاعوك يوم ندبتهم وهم القلة ليقفوا فى وجه الطوفان الوثنى الكاسح يوم بدر وأنت يا رسول الله تشحذ هممهم فتقول لهم :

(سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم) .

وإنه لبلاء عظيم هذا الذى تعرض له المسلمون يوم بدر وهم يلقون بأنفسهم — على قلتهم — فى وجه الطاغوت القرشى الذى خيل إليه وقد ملأه الغرور أنه يستطيع القضاء على الدعوة الجديدة كلها إذا استطاع التهام هذه الفئة القليلة .

وتحرك المسلمون فى ركابك يا رسول الله حتى جاءوا أدنى ماء بدر نزلوا به .

وهنا يتقدم الحباب بن المنذر بن الجموح ويقول :

يا رسول الله . أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فتقول له : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فيقول : يا رسول الله فان هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نعور — أى ندفن — ما سواه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فتقول له يا رسول الله : لقد أشرت بالرأى .

وتنهض وينهض معك الناس لتعمل برأى الحباب . .

إنها والله يا رسول الله لمدرسة رفيعة فى الحرب والسياسة بدأت بها الدنيا تخطو أولى خطواتها نحو الشورى فى عالم كان حكم الفرد فيه هو القاعدة ورأيه هو القانون .

وإنها لمحة من لمحات هديك فى موقف قد لا يلتفت القائد العسكرى إلى مشورة أحد . ولكنك يا رسول الله كنت تضع لأمتك هديا ، وتحدد لها خطا عميقا لا تمحوه الأيام من المثل والقيم والمبادئ .

ثم تلمح قريش تنحدر إلى الوادى فتقول :

اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . .

وها هو عمير بن وهب الجمحي يخرج من صفوف المشركين يحزر أصحابك يا رسول الله ، ثم يرجع إليهم قائلا :

يا معشر قريش قد رأيت البلايا تحمل المنايا . نواضح يثرب (أى الإبل) تحمل الموت الناقع . قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك .

ويقوم الجدل بين المشركين وينقسم الناس على أنفسهم ، منهم من يرى الرجوع إلى مكة دون قتال . وقسم يرى القتال مهما كانت النتيجة .

وأخيرا تواجهت الطائفتان .

ويبرز من قريش الأسود بن عبد الأسد المخزومى . هذا الشرس سيئ الخلق فيعالجه حمزة بن عبد المطلب بسيفه ويقطع ساقه ويسقط على ظهره مضرجا فى دمائه .

ثم يخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ويخرج إليهم فتية من الأنصار : عوف ومعوذ ابنا الحارث ومعهما عبد الله بن رواحة . . ولكن منادى قريش يقول :

يا محمد . أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فيخرج إليهم أسد الله حمزة بن عبد المطلب ومعه على بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث .

ولم يمهل حمزة شيبة أن قتله .

ولم يمهل على الوليد أن قتله .

ثم يكران مع عبيدة بن الحارث وقد جرح ليجهزوا على عتبة .

وتحمى الحرب وتثور قريش فتزحف على جموع المسلمين .

وقد وقفت يا رسول الله تعدل صفوف أصحابك وفى يدك سهم تشير به إلى القوم وتمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو متقدم عن الصف فتضربه بالسّهم فى بطنه وتقول له : استويا سواد بن غزية .

فيقول لك : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق فأقدنى (أى اقتص لى من نفسك) وهنا تكشف له بطنك وتقول له : استقد .

فينحنى سواد عليها يقبلها .

فتقول له : ما حملك على هذا يا سواد ؟

فيقول : يارسول الله حضر ما نرى فلم آمن من القتل ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك .

لله در هؤلاء الرجال . .

لشد ما أحبوك يا رسول الله .

ولشد ما أحببتهم وعلمتهم .

إنه عدلك النبوى وسماحتك وجميل خلقك .

إنهم سادوا وشادوا بكل هذه القيم والمبادئ التى استظلوا بظلها ونعموا بخيراتها بين يديك .

وتجلس يا رسول الله تناجى ربك :

اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعد اليوم .

ويقول لك الصديق : يا نبي الله بعد مناشدتك ربك فإن الله عز وجل منجز لك ما وعدك .

وتخرج من العريش تحرض أصحابك وتقول لهم :

والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

ثم تأخذ حفنة من الحصباء تستقبل بها قريشا وتقول : شاهت الوجوه :

فكانت هزيمة قريش وقتل سادتها .

وحفر القليب وطرحت فيه جثث الكافرين :.

أبو جهل وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وصناديد قريش من الكافرين والمشركين .

وتقف فى جوف الليل يا رسول الله وتقول لهم :

يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم . كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا .

وتعود بالركب المنتصر إلى المدينة مع غنائمه وأسراه من قريش .

وتشاور القوم فى أمر الأسرى فيقول أبو بكر الصديق :

يا رسول الله : قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم .

ويقول عمر بن الخطاب :

يا رسول الله كذبوك وأخرجوك . قدمهم نضرب أعناقهم .

فتقول لهما : (إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين . وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال :

« فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[1] .

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال :

« إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإِنْ تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[2] . . .

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة ابراهيم .

(٢) الآية ١١٨ من سورة المائدة .

ومثلك يا عمر مثل نوح قال :

« رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[١] » .

ومثلك كمثل موسى قال :

« رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[٢] » .

وأنتم اليوم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق) .

وينتهى الأمر إلى قبول الفداء ، فينزل الوحى الكريم يحسم هذا الحوار بمعجز بيانه :

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[٣]) .

* * *

وتمر الصور المشرقة فى سيرتك العطرة يا رسول الله بعد وقعة بدر التى أبلى فيها المسلمون بلاء عظيما حتى قلت فى موقف زلت فيه قدم أحدهم نحو خطأ جسيم :

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح .

(٢) من الآية ٨٨ من سورة يونس .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الأنفال .

(لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) . . وقد كان لهذا النصر أثره فى إرساء أسس العقيدة المدينة وما حولها وفى توطيد أركان الإسلام لينطلق من قاعدته الوطيدة إلى حيث يتبوأ مكانه العظيم .

ولكن قريشا لا تنسى عار هزيمة بدر ، فترجع إلى مكة تجر أذيال الخيبة وتمضغ الأحقاد بينما المسلمون يوطدون سلطانهم فى المدينة وما حولها .

وتتلاحم الأحقاد والأهواء وتتشابك المطامع وتتصارع الآراء ويعلو الضجيج وتستقر الأمور على تعبئة الرجال والشباب والنساء فى مكة وما حولها لإعادة الكرامة المهدورة ومحاولة جمع ما تبعثر منها على أرض بدر والثأر لهؤلاء الذين أطاح المسلمون برؤوسهم وألقوا بهم فى القليب .

واستقر رأى هؤلاء الذين ملأ الغباء أدمغتهم فذهبوا ينطحون الصخر ، وعميت قلوبهم فلم تجد بصيصاً من ضوء أو شعاعاً من نور يهديها إلى طريق الخير على أن يجمعوا شتات نفوسهم الممزقة ويدفعوا بها فى معركة حاسمة تقضى على المسلمين قضاء مبرما ، وتعيد لقريش هيبتها ومكانتها بين العرب بعد هزيمة بدر .

فخرجت فى ثلاثة آلاف من الرجال منهم مائتا فارس وتخرج لهم يا رسول الله فى سبعمائة رجل من المسلمين ، وقد صحبت قريش معها

نساءها يضربن الدفوف وينشدن ما رأينه يزيل رهبة الرجال ويحضهم على القتال .

ويتلاقى الجمعان عند جبل أحد لتدور المعركة الضارية ، بين قوم تمتلىء قلوبهم بالإيمان وحب الاستشهاد وبين قوم تمتلىء أفئدتهم بالبغى والحقد والحسد .

إنها معركة عقيدة وقيم ومبادىء .

وتصدر الأوامر يا رسول الله إلى الجيش لتكفل له النصر ، فتستدعى عبد الله بن جبير رئيس الرماة ومعه منهم خمسون وتقول له : انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك .

ويلتحم الجيشان ويكتب النصر للمسلمين فى أول معركة ويولى خالد ابن الوليد وعكرمة بن أبى جهل بفرسانهما فرارا من وجه المسلمين وترفع نساء قريش عن سوقهن وينجلى الموقف عن انتصار رائع للمسلمين ، ولكن الرماة يستهويهم منظر اندحار المشركين وهلع نسائهم فجعلوا يقولون : الغنيمة . . الغنيمة . . فيقول لهم عبد الله بن جبير : مهلا ! أما علمتم ما عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأبوا . فانطلقوا يجمعون الغنائم وقد سال لعابهم لها وداعبت خيالهم نزعات الضعف البشرى فلم يستمعوا إلى نداء رئيسهم عبد الله بن جبير الذى صمد فى مكانه حتى قتل .

وينظر خالد بن الوليد وهو على رأس فرسان قريش ويرى هذا المنظر فيدور عائدا إلى أرض المعركة وقد انكشف جيش المسلمين بعد نزول الرماة من سفح الجبل إلى بطن الوادى فيحمل عليهم وما أن رأى المشركون ذلك حتى عادوا إلى أرض المعركة فشدوا على المسلمين وأثخنوهم قتلا وضربا .

وتنقلب كفة المعركة لصالح المشركين ويبلو الله المسلمين أعظم البلاء لمخالفتهم أمر رسول الله وانشغالهم بجمع الغنائم وفرسان قريش لم يبرحوا بعد أرض المعركة .

واكتسح الطوفان القرشى الحاقد صفوة ممتازة من المهاجرين والأنصار حتى اختلط الأمر على كثير من المسلمين فكان الرجل منهم يضرب مسلما مثله وهو لا يكاد يعرفه ويصيح صائح أن محمدا قد قتل فتعظم البلية .

ولكن لله جنودا من صحابتك يا رسول الله وأسودا بين رجالك منهم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وأبو دجانة قاتلوا قتال الأبطال وأبلوا بلاء عظيما حتى انكشفت الغمة وانقشعت الظلمة التى أثارها النصر الزائف ، لقريش وعاد لك صفاؤك فبعثت تسأل عن الشهداء وتلتمس أخبار عمك حمزة ، ويأتيك الخبر بمصرعه فتنزل تلتمسه بين القتلى فترى أن قريشا قد مثلت به مثلة بشعة مع الكثيرين من شهداء المسلمين :

ذلك أن هندا بنت عتبة زوج أبى سفيان قد وعدت عبداً حبشيا هو وحشى بحريته إن هو قتل حمزة بحربته غدراً وغيلة انتقاماً منه حين قتل أباها وأخاها يوم بدر .

وشارك العبد الحبشى قريشا فى قتالها يوم أحد ولا هم له إلا أن يبحث عن حمزة أسد الله وأسد رسول الله بين صفوف المسلمين ثم يقف ينتظر لحظة غادر يقذف فيها بحربته يغتال بها سيد الشهداء ويشترى بها حريته .

ويعثر العبد الحبشى على حمزة رضى الله عنه يصول ويجول ويبلو أحسن البلاء ويرفع حربته ويقذفها لتصيب البطل أسفل بطنه وتنفذ من بين رجليه ، ويتركه العبد حتى يموت . ثم يسرع إلى هند يخبرها الخبر فتهرول إلى الجسد المسجى على أرض المعركة ينزف أطهر دم ويجود بأطيب نفس فتبقر بطنه وتجذب كبده تلوكها بأسنانها ثم تجدع أنفه وأذنيه .

وإذا هذا المنظر يحزنك غاية الحزن . وإذا بك يا رسول الله تقول : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم .

وإذا المسلمون يحزنون لحزنك ويغضبون لغضبك ويتألمون لمصرع حمزة وما أقدمت عليه قريش من المثلة بشهداء المسلمين فيقولون :

والله لئن أظهرنا عليهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط .

إنه حمزة سيد الشهداء وأسد الله وأسد رسول الله ، كاشف الكربات : إنه حبيبك الذى أسلم فى لحظة دفاعا عنك يا رسول الله يوم سبك أبو جهل سبا مقذعا فعلم حمزة بذلك وهو عائد من صيده فتوجه إلى الكعبة ورفع قوسه وأهوى بها على رأس أبى جهل وسط جموع قريش ثم أعلن إسلامه .

قد كان سندا لك فى جميع مواقفك وصال وجال فى بدر حين أطاح برؤوس أئمة الكفر ، ثم هاهو ذا فى مصرعه يوم أحد يمثل أشد البلاء وأعنف الجهاد فى سبيل الله .

وتتمثل لك هذه الصور المضيئة لحمزة بن عبد المطلب وتطلق وعيدك هذا يا رسول الله ويتأسى بك المسلمون فيقسمون على المثلة والانتقام من قريش .

ولكن للسماء دروبها ومسالكها المستقيمة التى لا تعرف غير سمو الخلق وجمال العفو وحسن الصفح ، إنها دروب الصالحين ومسالك المتقين ومناهج النبيين .

وهنا يأتيك الوحى بعزاء ربك فى عمك الحبيب ويعيد إليك وإلى أمتك صفاء النفس :

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ * وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)[1] .

فتعفو يا رسول الله وما أجمل عفوك وتصبر وما أجمل صبرك .

ويقتدى المسلمون بك ويعودون إلى سابق صبرهم وحلمهم .

وتتقدم صفية بنت عبد المطلب شقيقة حمزة لترى سيد الشهداء ، فتبعث لها ابنها الزبير بن العوام ليرجعها ويمنعها من أن ترى عنف مصرع حمزة فتقول : وهى فرع الشجرة الطيبة : قد بلغنى أنه مثل بأخى وذلك فى الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .

رحم الله هؤلاء الأفذاذ الأبطال .

حمزة عم النبى أسد الله وأسد رسوله وبطل بدر وشهيد أحد ، كاشف الكربات وسط غمرات الحرب يستشهد هذا الاستشهاد العنيف فى سبيل الله ثم تمثل به هند بنت عتبة أشنع مثلة . ورغم كل هذا فإن شقيقته تقول : إن هذا فى الله لقليل .

---

(١) الآيات ١٢٦ — ١٢٨ من سورة النحل .

إنهم نواة أمتك يا رسول الله ، هؤلاء الأفذاذ الذين أقاموا أركان العقيدة على أساس متين من التضحية والفداء والجهاد والبلاء دون ماانظر إلى شيء إلا إرضاء الله ورسوله .

إنه جهاد مجرد من كل أهواء الدنيا ومطامعها ومغانمها :

أية نفوس عالية تلك التي ملأها الإيمان بالنور الذي يخطف الأبصار .

رحم الله حمزة ، ورحم الله صفية ، أبطال هذا المشهد الفريد والبلاء العظيم .

واستشهاد حمزة مشهد فريد وسيظل كذلك حتى آخر الدهر .

وموقف صفية بنت عبد المطلب موقف فريد وسيظل كذلك إلى آخر الدنيا .

وأمام هذه الصور الجميلة المشرقة لجهادك وبلاء صحابتك نرى صورة لا تقل إشراقاً عن هذه الصورة وهي صورة عفوك الكريم يا رسول الله يوم فتح مكة . . هذا العفو الذي شمل حتى هند بنت عتبة آكلة الأكباد ، ووحشي العبد الحبشي .

. . فها هي ذي الأيام تمر وتقبل جيوش المسلمين لتهدم معقل الوثنية في مكة عام الفتح ، ويتقدم هذا العبد الحبشي الذي عاش بعد مصرع حمزة أشبه بالمجنون يهذي في الطرقات وقد أدرك أنه ارتكب جريمة العمر وعار الزمن ويتقدم إليك يا رسول الله وأنت تجلس بين أصحابك وينطق بالشهادتين ليحقن دمه ، وتنظر إليه وتعرف أنه قاتل عمك ولكن الله عصم دمه بالإسلام .

ويعاودك الحنين يا رسول الله وقد عادت إليك ذكرى عمك الحبيب المسجى على أرض أحد وقد مثلت به هند فتهزك الذكرى وأنت تستمع من العبد الحبشي إلى تفاصيل القصة .

وقد عفوت وصبرت يا رسول الله .

ونفسك الصافية الشفافة وكرمك وعفوك أسمى من أن تحمل حقدا بعد مقتل عمك ولكنك تلتفت إلى العبد الحبشي وتقول له :

(غيب وجهك عنى) .

وعلى قدر ما جاهد هذا العبد الحبشي فى حروب الردة ثم فى فتوح الشام فإن ذكرى مصرع حمزة ظلت تطارد خياله ويكاد ينخلع قلبه لها .

رحم الله سيد الشهداء وشهيد أحد .

وعزاء لك يا رسول الله فى عمك :

ويكفيك يا رسول الله رضا ربك عليك وأنت تقف يوم فتح مكة وزمام الأمر كله فى يدك ورقاب قريش كلها تحت سيوف رجالك المؤمنين ولكنك تطلق حكمك الجميل فى أهل مكة الذين آذوك وأخرجوك وحاربوك .. هؤلاء الذين عطلوا سير العقيدة فى مكة وما حولها عشرين عاما وناصبوك العداء ، ولكنهم يعلمون كرمك ووفاءك وأمانتك وصدقك فيجيبون على تساؤلك عما أنت فاعل بهم فيقولون : أخ كريم وابن أخ كريم :

فليكن حكمك هذا الذى حفظه التاريخ وسيظل يحفظه مثالا للوفاء والصبر والإخلاص :

(اذهبوا فأنتم الطلقاء) :

عفو فى موقف مقدرة :

وعطف ممن كانت حياته كلها عطفاً .

وكرم وسع كل من بلغه :

ما أكرمك وما أجمل صبرك يارسول الله :

وما أحلمك وما أقدرك على العفو :

وما أوسع رحابك الطاهرة يارسول الله لكل من أراد لنفسه ملاذا قيظ الحياة وهجير الوجود .

درس الفـداء

قال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)[١]

الجهاد واجب فرضه الله على المنضوين تحت لواء دعوتك يارسول الله والفدائية درس تعلمه المسلمون فى رحابك الطاهرة .

وامتزج الجهاد بالفداء فى بوتقة الإيمان ، فرأينا الصفوف تزخر بقلوب الأسود ونفوس الشجعان ، رهبان الليل وفرسان النهار ، فكانت الدروس المضيئة والمعالم الشامخة فى سيرة أصحابك هؤلاء الذين وهبوا الحياة لنصرة العقيدة دون نظر إلى مكافأة أو جزاء .

هؤلاء صفوة أمتك ونتاج تربيتك ، السائرون على درب هداك ومنهج رضاك ، تكفيهم دعوة منك ، أو ابتسامة من شفتيك ، أو لمسة لجسدك الطاهر كما فعل سواد بن غزية يوم بدر حين وقفت تعدل الصفوف وفى يدك سهم تضرب به بطن سواد فيقول لك : يارسول الله أوجعتنى فأقدنى (أى اقتص لى من نفسك) فتكشف بطنك

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران ..

فينحنى سواد عليها ويقبلها وحينما تسأله عن سبب ذلك يقول لك مايعبر عن أعظم الحب والشغف بك :

يارسول الله حضر ما نرى فلم آمن من القتل فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك .

هؤلاء الرجال أحبوك يارسول الله وأفنوا العمر كله فى محبتك وطلب رضاك ، فقاموا بالجهاد والفداء محبة فى الله ورسوله وطلبا لعفوه ورضاه وفناء فى تأدية الأمانة التى أشفقت الجبال من حملها .

هؤلاء الرجال جعلوا الجهاد عبادة والفداء فريضة :

إنهم طلائع أمتك يا رسول الله وطلاب منهجك .

ودرس الفداء الذى سنتعلمه منهم الآن مثال نادر من الأمثلة الرائعة لا نكاد نرى له مثيلا فى كتب التاريخ الإنسانى رغم ما زخرت به من سير الأبطال والشجعان .

كان ذلك بعد غزوة أحد ، وقد أراد الله جل شأنه أن تشق الدعوة طريقها وسط شعاب الوثنية التى تدمى ضمائر الموحدين ، وقد بدت الدعوة كنسائم رطبة فى هجير يلفح قلوب المؤمنين ، بدأت الوفود بعد غزوة أحد تفد على المدينة من القبائل العربية التى تنتشر فى بوادى الحجاز يحدوها الأمل فى المشاركة فى هذا البناء الشامخ الذى وضعت أساسه المتين بمنهجك السماوى الذى جاء به القرآن الكريم .

ولكن بعض هذه الوفود كان يداعبها الخيال ويدفعها الطمع إلى استغلال الصراع القائم بين وحدانية المدينة وبين وثنية قريش فى مكة ومن هذه الوفود وفد (عضل والقارة) وهم من الهون بن خزيمة ابن مدركة الذين قالوا لك يا رسول الله :

إن فينا إسلاما وخيرا . فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام

فتبعث معهم نفرا ستة من أصحابك هم : مرثد بن أبى مرثد الغنوى وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدى وزيد ابن الدثنة وعبد الله بن طارق .

وكان أمير هذه السرية مرثد بن أبى مرثد الغنوى .

وسنرى مع هؤلاء الستة الأفذاذ كيف تكون الفدائية وكيف يكون الثبات على المبدأ فى أحلك المواقف وأقسى الظروف ، وكيف يصبح الجهاد وسيلة العبد إلى ربه .

وسنرى كيف ترعى السماء جنودها وكيف تسهر عليهم حتى وهم أحياء عند ربهم يرزقون .

إنهم نواة أمتك المجاهدة يارسول الله وبعض نتاج دعوتك الذين أقاموا أركان العقيدة على أساس متين من التضحية والفداء والجهاد والبلاء دون ما نظر إلى شىء إلا إرضاء الله ورسوله .

سنرى لمحة من خاتمة جهادهم الذى بدأوه يوم بدر ، هذا الجهاد المجرد من كل أهواء الدنيا ومطامعها ومغانمهـا ، والذى تعلموه فى مدرستك يا رسول الله .

وما كان موقفهم هنا إلا ومضة من نور عظمتك ، هذه العظمة التى تعرف أقدار الرجال وتعلم أن نفحات السماء لا تترك جنودها الأبرار دون رعاية ولاتدع للمشركين حرية التخطيط والمكر والتدبير ، وإنما تنصر عبادها المؤمنين وإن جندها لهم الغالبون .

انطلق هؤلاء الستة مع الركب العائد حيث يؤدون المهمة التى كلفتهم بها يا رسول الله ، ولكن الركب ما إن يصل إلى مكان يسمى الرجيع حتى يغدر القوم بهؤلاء النفر من الصحابة ويحيطون بهم من كل جانب وقد شرعوا أسلحتهم فيأخذ الصحابة أسيافهم يقاتلون بها القوم الذين يقولون لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ولكنا نريد أن نكسب خيرا من وراء تسليمكم لأهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

ويدرك هؤلاء النفر الطاهر من الصحابة أن الغدر لا مواثيق له ولا عهود معه . وأنى لهؤلاء أن يعرفوا عهد الله وميثاقه ؟

وهنا يواجههم عاصم بن ثابت أحد هؤلاء الستة الأفذاذ قائلا : والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا .

وقاتلوا القوم حتى قتل عاصم بن ثابت ومرثد بن أبى مرثد وخالد ابن البكير .. ولم يبق من هذه السرية الفدائية إلا ثلاثة هم : خبيب

ابن عدى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق غلبوا على أمرهم فأسرهم القوم وأوثقوهم واتجهوا بالركب إلى مكة يدفعهم الأمل فى جزيل العطاء من مشركى قريش بعد أن يساوموهم على هؤلاء الأسرى الكرام من أصحابك يارسول الله .

ولكن عبد الله بن طارق أحد الثلاثة ينزع يده من رباطه ويقول :

والله لا أصاحبكم ، إن لى بهؤلاء أسوة (يعنى أصحابه الذين قتلوا يومئذ) .

ثم أخذ سيفه وقاتل القوم حتى تجمعوا عليه فقتلوه رميا بالحجارة .

وقبل أن نعرض مشهد هذا الركب فى مكة نعرض مشهدا فريداً لهذا الفدائى الجليل عاصم بن ثابت الأنصارى ؛ الذى شهد بدرا وأحدا ، وثبت يومها مع من ثبت معك يارسول الله من المؤمنين .

وكان عاصم بن ثابت قد قتل يوم أحد مسافعاً والجلاس ابنى طلحة ابن أبى طلحة وأمهما سلافة بنت سعد فنذرت أمهما أن تشرب الخمر فى قحف رأس عاصم وجعلت لمن يأتى برأسه مائة ناقة .

وها هوذا عاصم بن ثابت يقتل يوم الرجيع وقد أبى أن يساوم القوم أو يهادنهم بل أبى أن يكون بينه وبين أحد من المشركين عهد أو ميثاق .

ولكنه كان قد نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً أبدا فى حياته ؛ ولهذا قاتل القوم حتى فنيت نبله ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه وبقى السيف فأمسكه وقال :

اللهم إنى حميت دينك أول النهار فاحم لحمى آخره .

ثم قاتل القوم حتى جرح منهم رجلين وقتل واحدا ، فشرعوا فيه الأسنة حتى قتلوه .

وأرادوا أن يحتزوا رأسه ليبيعوها إلى سلافة بنت سعد لتفى بنذرها المشئوم وتشرب فيه الخمر .

ولكن للسماء دروبها ومسالكها التى لا يعلمها إلا من جاهد النفس على السير فيها ليصل إلى ثمار عمله وكان عاصم من هؤلاء الأفذاذ الذين يعلمون الحق ولا يساومون عليه وقد جاهد يوم بدر وثبت يوم أحد ووقف شامخاً يوم الرجيع حتى قتل وهو يدعو ربه أن يحمى جسده من أذى المشركين ويفى بنذره وينقذ رأسه الطاهر من أن تشرب الخمر فى قحفة سلافة بنت سعد .

وتستجيب السماء لدعاء عاصم فيبعث الله أسراباً من النحل تحمى جسده طول النهار وتمنع القوم من الاقتراب منه حتى قالوا : دعوه يمسى فيذهب عنه فنأخذه ، ولكن ما إن يأتى الليل حتى يبعث الله سيلا فى الوادى فيحتمل جسد عاصم ويذهب به بعيداً عن أيدى القوم فلا يصلوا إليه .

ويبر عاصم بقسمه وهو شهيد فيحمى جسده ويفى له بنذره فلا يمسه مشرك .

ثم ينطلق الركب الغادر إلى مكة ومعه خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة الذى ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف .

ودفع القوم بخبيب إلى بنى الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم أحد .

وكما رأينا هذا المشهد الفريد لعاصم بن ثابت وإخوانه الذى شهدته مياه الرجيع نعرض هذا المشهد الفريد لباقى السرية الفدائية خبيب وصاحبه زيد .

فها هو صفوان بن أمية يبعث بزيد بن الدثنة ليقتله فتجتمع قريش تشهد هذا المشهد ، لعلها تجد فيه شيئاً تنفس به عن مكنون حقدها وكان بين القوم أبو سفيان الذى قال لزيد وهو يقدم للقتل :

أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟

فيقول زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى .

فيقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

وقتل زيد بن الدثنة والقوم حوله يعجبون من ثباته وصلابة إيمانه .

ويبقى خبيب بن عدى فى محبسه ينتظر مصيره المحتوم وسط أنواء الكراهية والحقد التى تعصف بالقلوب وتخلع الألباب ولكن للمؤمنين قلوباً راسخة كالجبال ، ونفوساً شامخة كالقمم ، لا تعرف الخوف ولا يعبث بها الهلع ولا تهزها أعاصير الحقد .

وينظر القوم يوماً إلى خبيب فى محابسه فيدهشون إذ يجدون بين يديه قطفاً من عنب يأكله وليس فى مكة كلها من ثمرة .

فما كان إلا رزقا رزقه الله خبيبا .

ويخرج القوم يوما بخبيب ليصلبوه على صليب ربما لم تصنع العرب صليبا قبله تقتل عليه إنسانا ، ولكن خبيب كان كالغريق فى بحار تموج بالكراهية وتعج بأنواء الحقد ، فصنعوا الصليب ليكون عذابه مضاعفاً ، ولكنه يقول لهم :

إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا : دونك فاركع ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما .

ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة .

فكان خبيب بن عدى أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين .

وتجمع القوم يشهدون مقتل خبيب وتقدم بعضهم يرفعونه على خشبة الصليب فلما أوثقوه قال :

اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ثم قال :

اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا .

وتردد جبال مكة أصداء دعوته ويتقدم أحد بنى الحارث بن عامر فيقتله بحربته فوق الصليب .

ويظل خبيب مكانه على الصليب صابرا محتسبا حتى أخبرك الوحى يارسول الله بمصير هذه السرية الفدائية فتبعث عمرو بن أميـــة ليوارى جثمان خبيب وينزله من على الصليب .

ويروى عمرو بن أمية ما حدث فيقول :

جئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون فرقيت فيها فحللت خبيباً: فوقع إلى الأرض فتنحيت غير بعيد ثم التفت فلم أر لخبيب جثة فكأنما ابتلعته فلم تذكر لخبيب رمة حتى الساعة .

وستمر الأيام والسنون وسيقول معاوية بن أبى سفيان بعد أن أصبح خليفة المسلمين وكان قد شهد مقتل خبيب مع أبيه أبى سفيان :

حضرت هذا المشهد يومئذ فيمن حضره مع أبى سفيان فلقد رأيته يلقينى إلى الأرض خوفا وفرقا من دعوة خبيب وهو على الصليب .

وكان القوم يعتقدون أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع على جنبه لم تؤثر فيه الدعوة .

ويقول سعيد بن عامر الجمحى الذى استعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه على بعض الشام أيام خلافته وقد كانت تصيبه غشية وهو بين القوم وذلك حينما سأله أمير المؤمنين عمر عن ذلك :

والله يا أمير المؤمنين ما بى من بأس ولكنى كنت فيمن حضر خبيبا ابن عدى حين قتل وسمعت دعوته فوالله ما خطرت على قلبى وأنا جالس فى مجلس قط إلا غشى على .

وبهذا تنتهى مشاهد هذه السرية الرائدة فى مجال الفداء وقد رأينا كيف كان الجهاد وسيلة العبد إلى ربه .

لله در هؤلاء الرجال .

لشد ما أحبوا الله ورسوله .

ولشد ما تحملوا فى سبيل الجهاد ألوانا من العنت وصنوفا من العذاب .

ولكنها القيم والمبادىء التى لا تبقى ولا تذكر إلا بفضل أمثال هؤلاء الأفذاذ الذين يضعون لنا المعالم وسط هجير الوجود . وينيرون الدروب بومضة من عظمة محمد رسول الله التى أشرقت عليهم . فكان لنا هذا الدرس الجميل وتلك اللوحة الخالدة للجهاد والفداء .

رحم الله هؤلاء الشهداء الأبرار .

وطوبى لمن سار على دربهم .

ونهج نهجهم ونسج على منوالهم .

وطوبى لنـا لأننا أحببناك ولم نرك يا رسول الله .

يا إمام الجهاد . . ومعلم الفداء .

وصدق الله العظيم حين قال :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ) .

* * *

درس الشهادة

قال تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[1] .

وهل تحتاج الشهادة إلى درس يتلقاه المسلمون .

نعم ، ما دمنا فى رحابك نطوف ، وعلى نهجك نسير ، وعلى دربك نخطو .

وليس أبلغ درسا من درس الشهادة فى رحاب سيرتك الطاهرة يارسول الله ، فكأنك كنت تستلهم السماء أمر هؤلاء الشهداء الأبرار فأقمت كل أمير مكانه بترتيب لا يختل حتى حينما اعترض جعفر بن أبى طالب على ذلك لم ترض عن اعتراضه .

ومالنا نسمح للأسماء تطفو على سطح حديثنا من الآن وتزاحم الحوادث فى هذه اللوحة الرائعة من لوحات سيرتك العطرة يا رسول الله ؟

لعله الحرص يدفعها إلى بيان عظمة هؤلاء الشهداء أصحاب مؤتة ! !

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

أم لعله الواجب لبيان هذا الدرس من فم التاريخ صانع الأبطال !

على أى وجه من الوجوه جاءت غزوة مؤتة بعد كفاح طويل وجهاد متصل مستمر بدأه المسلمون منذ درس الهجرة الأول .

ترك المسلمون الأهل والعشيرة والمال والولد وهاجروا إلى المدينة ينشرون راية الإسلام ويعملون على إنارة دنياهم بنفحات من هدى السماء بعد أن أطبقت ظلمات الوثنية على أنفاسهم فى هجير مكة اللافح.

وآخيت يا سيدى يا رسول الله بين المهاجرين والأنصار أصحاب يثرب هذا التآخى الذى لم نشهد له مثيلا فى تاريخ الرسالات ومراحل تطور العقائد كلها .

هذا التآخى الصافى من كل شوائب الأنانية والأثرة . والذى دفع برجل مثل سعد بن الربيع أن يعرض نصف ماله وإحدى زوجتيه يطلقها لزميله فى هذه المؤاخاة عبد الرحمن بن عوف مهاجر مكة الذى يقول له بأعف لسان وأجمل روح : بارك الله لك فى مالك وزوجك ولكن إذا أصبحت فدلنى على سوقكم ، ويخرج يتاجر ويربح .

وجاءت غزوة بدر لنشهد الطوفان الوثنى يقوده الموتورون من رجال قريش يراودهم الأمل ويداعبهم الخيال فى اكتساح نواة أمتك وأصل الشجرة المباركة التى ستؤتى ثمارها كل حين باذن ربها .

ثلاثمائة رجل هم الصفوة الممتازة المجاهدة الصامدة أمام طوفان الشرك والوثنية تحاول أن تروض مسيره وتغير مفاهيمه لخير الدعوة دو ن طائل ودون فائدة .

هؤلاء الأبرار وقفوا يوم بدر يقولون لك يا رسول الله : امض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .

وتم النصر للمؤمنين وعادت قريش تلعق جراحها وتجر أذيال هزيمتها ، فكانت غزوة بدر بذلك نقطة التحول والانطلاق ، وقاعدة متينة راسخة فى كيان الدعوة المحمدية التى بدأها معك جبريل الأمين يوم دلف من السماء يقول لك :

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

ثم كانت غزوة أحد ميدانا آخر لاختبار إيمان المؤمنين ، وكتب الله النصر فى أولها للمسلمين إلا أن الرماة خالفوا أمر قائدهم عبد الله ابن جبير الذى أمرهم بأمرك يا رسول الله أن ينضحوا الخيل عن مؤخرة المسلمين .

ولكن الرماة يسيل لعابهم لمنظر الغنيمة وفرار المشركين ومن خلفهم نساء مكة وقد رفعن عن سوقهن .

هناك ينزلون إلى ساحة المعركة يشاركون فى جمع الغنائم فلم تفت حركتهم هذه عبقرى الحرب خالد بن الوليد وكان ما زال فى معسكر قريش فلوى عنق جواده وعاد بفرسانه يباغت جيش المسلمين من المؤخرة . وكان البلاء الذى شهده المسلمون فى أحد وكانت المحنة قاسية حقا .

ولكنها الأيام يداولها الله بين الناس .

ثم تعاود قريش الكرة مرة أخرى حين تعقد العزم على مهاجمة مهد الدعوة وقاعدتها الأولى فى المدينة .

جاءت إلى مدينتك يا رسول الله بعد أن دبرت مؤامرتها مع يهود يثرب .

وتم الالتقاء بين وثنية قريش وشيطانية اليهود على هدم الدعوة وإخمادها وخنق أنفاسها فى المدينة ، حتى بلغ الأمر باليهود أن قالوا لكفار مكة : دينكم خير من دينه .

واتجهت جحافل الأحزاب تضيق الخناق على المدينة وبداخلها اليهود يخلخلون كيانها وتماسكها ، ولكن البنيان الذى شيدته يا رسول الله بإيمانك وصلابة أصحابك كان أقوى من كل ما يدبرون فصمد المسلمون ، وابتدأوا يحفرون الخندق حول المدينة .

وعملت فيه بنفسك يا رسول الله ترغيبا للمسلمين وتشجيعا لهم حتى كان الرجل منهم يستأذنك إذا حان وقت حاجته أو عرض له أمر هام من أمور حياته ثم يعود مرة ثانية يعاود العمل فى الخندق رغبة فى الخير وطاعة لله ورسوله .

فأنزل جل شأنه فى هؤلاء المؤمنين :

إنما ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[1]

ولكن مجتمع المدينة كان يعج بالكثير من المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالعمل ثم يتسللون ويذهبون بغير استئذانك يا رسول الله فينزل القرآن يكشف أمرهم :

(لا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[2] .

وأثناء عملية الحفر تشتد على المسلمين فى بعض الخندق صخرة عظيمة وتشاهدهم مع سلمان الفارسى وهم يعالجونها فتنزل يا رسول الله وتأخذ المعول وتضربها ضربة فتلمع تحت المعول برقة ثم تضرب الثانية فتلمع برقة ثانية ثم تضرب الثالثة فتلمع برقة ثالثة .

---

(١) الآية ٦٢ من سورة النور .

(٢) الآية ٦٣ من سورة النور .

ويسألك سلمان الفارسى :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

فتقول له : أوقد رأيت ذلك يا سلمان ؟

فيقول سلمان : نعم .

فتقول له :

أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن .

وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب .

وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق .

وستمر الأيام والسنون وتفتح هذه الأمصار ويقول أبو هريرة يوما :

والذى نفس أبى هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها . إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك :

ثم جاء بعد ذلك إجلاء بنى قريظة وبنى المصطلق وما كانا يمثلانه من جيوب المقاومة وشوكة الخطر فى جنب الدعوة .

ثم يأتى صلح الحديبية وعمرة القضاء وما تمثل فى ذلك كله من تقدم واضح عميق فى خط سير الدعوة وخطوات ملموسة نحو بلوغ غايتها

وما كان بينهما من فتح خيبر سنة سبع للهجرة وقد فتحها الله عليك حصنا حصنا .

وها أنت ذا تعطى اللواء يوما لأبى بكر ويوما لعمر ثم تقول يوما :
أما والله لأعطينها غدا رجلا يحب الله ورسوله .
ثم تدفعها إلى على بن أبى طالب الذى فتح الله عليه يومها .

وترجع يومها يا رسول الله وفى ركابك صفية بنت حيى التى كانت قد رأت فى منامها وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق اليهودى أن قمرا وقع فى حجرها .

وقد عرضت رؤياها على زوجها الذى قال لها :

ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا ، ولطم وجهها لطمة شديدة اخضرت عيناها منها فأتى بها إليك وبها أثر منها .

وكأنما كان زوجها يستقرىء الغيب ، فها هى تعرس لك يا رسول الله وينتظمها هذا العقد المختار لنسائك الطاهرات .

وتوالى دخول المسلمين إلى رحاب العقيدة الجديدة ومنهم رجالات قريش .

فها هو خالد بن الوليد يقابل عمرو بن العاص فى الطريق إلى المدينة فيقول عمرو :

إلى أين يا أبا سليمان ؟

فيقول خالد :

والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبي . أذهب والله فأسلم فحتى متى ؟

فيقول عمرو :

والله ما جئت إلا لأسلم .

وهكذا كسب الإسلام قائدا مغوارا سيكون له شأن أى شأن فى حديثنا عن موتة ثم فى حديث الإسلام كله بعد ذلك يوم يأتى الأوان ، وسياسيا داهية سيشارك فى الحرب والسياسة بنفس الحماس الذى شارك به قبل إسلامه .

ويتجه نظرك بعد ذلك يا رسول الله إلى الشام بعد تأمين المدينة وما حولها وبعد مهادنة قريش وعمرة القضاء . وكأنك كنت تعلم بثاقب فكرك أن هذه هى الطريق الطبيعية لنشر الدعوة ، وقد أردت أن تتبع سياسة إيجابية الدفاع بارهاب أعراب شمال الحجاز وجنوب الشام وعليهم عمال هرقل وقد سبق لهؤلاء أن غدروا ببعض أصحابك وقتلوا رسلك .

وكأنما كنت تفتتح بهذه الغزوة عصر الفتوحات كما كان صلح الحديبية تمهيدا لفتح مكة وما تلا ذلك من انتشار الدعوة وتمكين الدين فى الجزيرة العربية كلها .

توجه المسلمون فى ثلاثة آلاف ليواجهوا حشودا من الرومان والأعراب تصل إلى مائة ألف ، وقد أمرت عليهم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة .

ولنا وقفة هنا نرى فيها ملامح هؤلاء القادة الذين وقع عليهم عبء المجابهة الأولى لجيوش الرومان أولهم زيد بن حارثة هذا الذى اختطفه الأعراب يوما من أمه وباعوه فى سوق عكاظ حيث اشتراه حكيم ابن حزام الذى أهداه بدوره إلى عمته خديجة التى وهبته لك يا رسول الله فتعتقه وتمنحه الحب والعطف والرعاية .

ويعلم أبوه بمكانه فى بيتك فيأتى إلى مكة ويحاول المساومة ولكنك تقول له : ادعوا زيدا وخيره فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء وإن اختارنى فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء .

وهنا يحسم زيد الموقف حين يقف أمام الجميع ويقول فى وجه أبيه :

ما أنا بالذى أختار عليك أحدا أنت الأب والعم .

وهنا تخرج يا رسول الله إلى فناء الكعبة حيث تنادى :

اشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه .

وأصبح منذ ذلك اليوم يدعى زيدا بن محمد .

وقد تربى فى منزل الوحى بين الوفية المخلصة خديجة بنت خويلد وبين رعايتك وحبك وعطفك عليه فشب فى واحة الإيمان لتعى ذاكرته كل معانى الإيمان والجهاد والفداء .

وتزوجه بنت عمتك زينب بنت جحش إمضاء لقاعدة المساواة وشريعة العدل التى جاء الإسلام يرسى قواعدها .

وقد تدرب زيد على أسلوب الجهاد فلم تكن تبعثه فى سرية إلا كان أميرها وقائدها حتى كانت غزوة مؤتة فقدمته على صاحبيه .

أما جعفر بن أبى طالب .

فهو ابن عمك يا رسول الله .

كان من الرعيل الأول الذى استجاب لدعوة الحق ونداء الإسلام .

خرج مهاجرا إلى الحبشة فكان الناطق الفطن لجماعة المسلمين المهاجرة إلى أرض النجاشى ، وقد وقف يوما شامخا فى بلاط النجاشى يرد على عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص وقد بعثهما قريش إلى هناك ضمن مخططها الحاقد لإخراج هذه الجماعة المؤمنة من الحبشة لعلها تستطيع أن تطفىء جذوة حقدها بالتنكيل بهم حينما يعودون بهم إلى بطحاء مكة .

ويتصدى جعفر للرد على أباطيل وفد قريش أمام النجاشى الذى ما إن يستمع إلى المحاورة حتى يقول لعمرو بن العاص وصاحبه :

انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما .

ويبقى جعفر مع جماعته المؤمنة الصادقة المهاجرة فى الحبشة حيث يعود منها بعد فتح خيبر .

وقد انتظر أن تواتبه فرصة عمره ليشارك فى الجهاد الذى فاته فى بدر وأحد وغيرهما من مشاهد الجهاد والفداء .

حتى كانت غزوة موتة .

أما عبد الله بن رواحة فقد كان أحد النقباء الإثنى عشر من الأنصار الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى وحملوا بذرة الإسلام إلى المدينة .

ثم كان أحد المبايعين بيعة العقبة الثانية .

وهو أحد البدريين وكان ضمن من خاضوا غمار أحد والخندق والحديبية وخيبر .

وكانت له مكانته الخاصة فى مدرسة صحابتك الأولى .

فحينما نزلت الآية :

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ . . . .)[1] .

تلوتها يا رسول الله وأشرت إلى عبد الله بن رواحة وقلت :

---

(١) الآية ٦٦ من سورة النساء .

لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل .

هؤلاء هم قادة جيش مؤتة الذين خرج الناس يودعونهم حتى بكى عبد الله بن رواحة فقالوا له :

ما يبكيك يابن رواحة ؟

فقال :

أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار :

(وَإِن مِّنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا)[1] .

فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود .

فقال المسلمون :

صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وتودع القادة والجيش كله ويمضى الناس إلى أرض البلقاء حيث يعلمون كثافة الحشود التى جمعها الروم أمامهم حتى بلغت مائة ألف أو تزيد .

وتشاور القوم فيما بينهم حتى أشار بعضهم بالانتظار وطلب المدد منك يا رسول الله .

---

(١) الآية ٧١ من سورة مريم .

وهنا ينهض عبد الله بن رواحة فيقول للقوم :

ياقوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولاقوة ولاكثرة ، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس :

قد والله صدق ابن رواحة .

ومضى الناس حتى انحازوا إلى قرية يقال لها مؤتة ، فالتقى الجمعان عندها وتعبأ المسلمون وتقاتل القوم قتالا شديدا ، فقاتل زيد بن حارثة برايتك يا رسول الله حتى قتل فأخذها جعفر بن أبى طالب ابن عمك وكبير مهاجرى الحبشة فقاتل بالراية حتى إذا حوصر اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة الذى لحق بصاحبيه فى ميدان الشهادة .

وهنا يصطلح المسلمون على خالد بن الوليد الذى أخذ الراية ودافع القوم حتى استطاع بعبقريته العسكرية الفطرية التى بدأت تشرق أن ينحاز بالقوم ويخلص البقية الباقية من المسلمين من براثن الحشود الرومانية ويعود بهم إلى المدينة .

فى هذا اليوم تصعد المنبر يا رسول الله وتأمر فينادى : الصلاة جامعة .

ويجتمع الناس إليك فتقول :

باب خير ، باب خير ، باب خير ، أخبركم عن جيشكم هذا الغازى ، إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيدا ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء هو أمر نفسه :

اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره .

ومنذ ذلك اليوم سمى خالد بن الوليد سيف الله .

وعاد خالد بالقوم من مؤتة فتلقاهم يارسول الله ومعك المسلمون فى المدينة يواسون جراحهم ، غير أن بعض الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

يافرار من سبيل الله .

وتقول يارسول الله وأنت العالم بأقدار الرجال وصانع الأبطال ومربى القادة والشجعان وكأنك تمسح بيديك الكريمتين أشجان هؤلاء العائدين .

ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله : :

لشد ما كان مصاب المسلمين عظيما فى أبطال مؤتة ولشد ما حزنت يا سيدى يا رسول الله وأنت تنعى هؤلاء الأمراء الأبطال قادة جيش مؤتة وقد أطرقت لحظات ترى فيها مصارع الأبطال وتقول :

لقد رفعوا إلىَّ الجنة :

ثم ترى ابنة زيد تبكى أباها فتبكى لبكائها حتى تنتحب : :

ويسألونك عن هذا فتقول :

هذا شوق الحبيب إلى حبيبه .

فليكن هذا التوافق الغريب بين ترتيب استشهاد هؤلاء الأبطال وبين ترتيب قيادتهم للجيش شيئا ربما لم نر له مثيلا فى غزواتك كلها بل ستظل مؤتة فريدة بأبطالها وبأسلوب استشهاد قادتها .

وسيظل هذا الطراز من الرجال معلما لأجيال المسلمين إذا ما أرادوا أن يتعلموا درس الشهادة بعد درس الجهاد ودرس الفداء .

وسيكون للشهيد تلك المكانة الممتازة فى مجال الحساب .

فحينما أصيب عمك حمزة ومصعب بن عمير رأوا مارزقوا من الخير فقالوا : ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كى يزدادوا فى الجهاد رغبة فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم وأنزل عليك :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[1] .

---

(١) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

وقد احتلت أرواحهم مكانها السامى فى عالم الخلود عند بارئها فهى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش العظيم تركع وتسجد لله حتى يوم القيامة .

أما أجسادهم فلها نفس الكرامة فلا تبلى فى القبر ولا تأكلها الأرض شأنها شأن أجساد الأنبياء ، تلك منة من رب العالمين يمن بها على عباده المتقين الذى بذلوا الأرواح الغالية فى سبيل الله .

وها أنت يا رسول الله تقابل جابر بن عبد الله يوما فتقول له .

يا جابر مالى أراك منكّسا مهتما ؟

فيقول لك :

يا رسول الله استشهد أبى وترك عيالا وعليه دين .

فتقول له :

ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل به أباك ؟

فيقول جابر :

بلى يا رسول الله .

فتقول له :

إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا — أى مواجهة — وما كلم أحدا قط إلا من وراء حجاب ، فقال له يا عبدى تمن أعطك ، قال يارب

فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب تبارك وتعالى إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون ، قال يارب فأبلغ من ورائى فأنزل الله عز وجل :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) .

ذلك درس للشهادة بليغ ولوحة رائعة من لوحات الجهاد فى سيرتك وما أوسع رحابك يارسول الله .

يا صانع الرجال ومعلم الأبطال :

ويوم حنين

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾[1] .

عاد المسلمون من عمرة القضاء وقد ترك سلوكهم فى نفوس أهل مكة آثارا لايمكن إغفالها ، فها أنت يارسول الله فى ألفين من المسلمين يعودون فى ركابك بعد زيارة بيت الله الحرام فى عمرة القضاء وقد رأى أهل مكة منهم ما أثار إعجابهم وهز تماسكهم وزلزل بنيانهم .

ولا تمر أيام حتى يقول خالد بن الوليد فارس قريش يوم أحد :

والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لنبى .

ويقابله فى بعض الطريق عمرو بن العاص الذى أشرقت شمس الحقيقة فى نفسه هو أيضا ، فيتوجهان معا حيث يعلنان إسلامهما بين يديك .

---

(١) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة التوبة .

وتبعهما الكثير من أهل مكة هؤلاء الذين شاهدوا شوارق الإيمان تشرق على بطحاء مكة أيام عمرة القضاء الثلاثة .

وتمر الأيام ويدخل الناس فى دين الله أفواجا وتصبح مكة كلها مهيأة لأن تفتح أبوابها للدعوة الجديدة .

فها هى قريش تنقض عهد الحديبية وتعتدى هى وحلفاؤها على قبيلة خزاعة وهى قد دخلت فى عهدك بعد صلح الحديبية فاستنصرت خزاعة بك يارسول الله فتقول لعمرو بن سالم الخزاعى وقد جاءك مستنصرا :

نصرت ياعمرو بن سالم .

وترى بثاقب فكرك وبعد نظرك أن فتح مكة قد جاء أوانه حماية للدعوة الإسلامية وإنهاء لمرحلة القلاقل التى تعيشها الجزيرة العربية وليبدأ المسلمون عهد الاستقرار والفتوح للقضاء على وثنية المنطقة حسب موعود الله .

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . .)[1] .

وتفطن قريش إلى كل هذا فتبعث بأبى سفيان فى سفارة تكاد تشبه الاعتذار عما حدث من نقض عهد الحديبية ولكنه لا يجد آذانا

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

صاغية . حتى ابنته أم حبيبة زوجك يارسول الله تطوى الفراش عن مجلسه وتضن عليه به لأنه فراش رسول الله وأبوها رجل مشرك نجس .

يالها من دولة تلك التي وضعت أساسها ياسيدى يارسول الله .

حتى النساء كن يعلمن كيف يجابهن أحلك المواقف وأدقها .

أراد أبو سفيان أن يوسط ابنته أم حبيبة أم المؤمنين لديك فى إطالة عهد الحديبية وتجديده ، ولكنها هى لا تعلم ما اعتزمت عليه من فتح مكة ترفض مجرد جلوس أبيها على فراشك يارسول الله .

ويأبى أبو بكر أن يتوسط فى نفس الموضوع .

ثم يذهب أبو سفيان إلى عمر فلا يسمع منه إلا أغلظ الكلمات .

دولة يعلم كل فرد فيها واجبه حيال مسئوليته الكبرى وحيال مسئولية قائده ورأس أمته .

لله در هؤلاء جميعا . فقد أقاموا بسلوكهم قواعد راسخة لإدارة الدولة وبناء الأمة .

وتخفق سفارة أبى سفيان فيعود إلى مكة يحمل النذير إلى أهلها .

وفيما أنت تستعد لفتح مكة وتجهز المسلمين لذلك وتعلنهم بعزمك وقرارك ، والمدينة تعج بألوف المسلمين يجمعون حشودهم وينظمون صفوفهم لبدء مسيرة الفتح ، إذا برجل من أهل بدر تعتريه نوبة من

نوبات الضعف الإنسانى فيزل زلة لو أتاها بين يدى غيرك لدفع رأسه ثمنا لها ، ولكنك يارسول الله معلم الرجال وصانع الأبطال والعالم بأقدار الناس تأخذ بيده وتقيل عثرته :

فها هو حاطب بن أبى بلتعة ما إن يعلم باستعداد المسلمين لفتح مكة حتى يكتب كتابا إلى قريش يخبرهم بذلك ثم يعطيه امرأة ويجعل لها مكافأة على أن تبلغه قريشا فتخفيه فى رأسها وتنطلق إلى مكة ، ويأتيك خبر السماء بأمر حاطب فتبعث عليا بن أبى طالب والزبير ابن العوام فى طلب المرأة فيلحقان بها فى بعض الطريق ويعودان بالكتاب وتستدعى حاطب بين يديك تقول له :

يا حاطب ما حملك على هذا ؟

فيقول :

يارسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهرهم أهل وولد فصانعتهم عليهم .

وهنا ينهض عمر بن الخطاب ويقول :

يارسول الله ، دعنى لأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق .

ولكنك تنهى الموقف المحزن بلمسة من لمسات حنانك ونفحة من نفحات هديك فتقول :

وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

وينزل رأى السماء فى قوله عز وجل :

(يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ)[1] .

وتمضى يارسول الله إلى ما أراد لك ربك وهداك إليه إلى حيث تفتح لك مكة أبوابها .

ويقابلك أبو سفيان فى بعض الطريق فيعلن إسلامه بين يديك فتأمر عمك العباس أن يجلسه عند مقدمة الجبل بمضيق الوادى حتى تمر أمامه جنود الله ، وتعلم يارسول الله نفسية الرجل فتقول :

من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن .

ويقف أبو سفيان وحشود المسلمين تمر أمامه إلى مكة حتى يشاهد كتيبتك الخضراء من المهاجرين والأنصار فيقول للعباس :

من هؤلاء يا أبا الفضل ؟

---

(١) الآية ١ من سورة الممتحنة .

فيقول له :

هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار .

فيقول أبو سفيان :

يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما :

فيقول له العباس :

ويحك إنها النبوة .

ويدخل المسلمون مكة فى عشرة آلاف مقاتل تهدر جموعهم بتسبيح الله جل شأنه يرفعون راياتهم لينضوى تحتها أهل مكة يعلنون إسلامهم دون قتال يذكر .

وتقف ياسيدى يارسول الله أمام باب الكعبة فى لحظة لا نشك أنها من أخطر لحظات الدعوة الإسلامية ، فهى تمثل نهاية عهد من الصراع القبلى الذى لا طائل وراءه وبداية عهد من الإخاءوالمساواة والعدل والاستقرار استعدادا لبناء هذا الصرح الشامخ لدولة الإسلام على مبادئ وقواعد واضحة المفاهيم لتكون نبراسا تهتدى به أمم العالم فى وقت ضاعت فيه المفاهيم واندثرت الوحدانية وسط صلافة أمم المنطقة الوثنية وسطوة الصليبية الغربية التى كان يرزح تحت نيرها نصف عالم هذه الفترة .

تقف ياسيدى يارسول الله أمام باب الكعبة تنهى مشاكل فترة من أعقد فترات الدعوة ليبدأ المسلمون بعدها مرحلة البناء والاستعداد

للانطلاق العقائدى شرقا وغربا لتقوم حضارة زاهرة تقضى على وثنية المنطقة إلى غير رجعة وتوحدها من الخليج إلى المحيط تحت لواء الدعوة الإسلامية لتشع بعد ذلك إلى الشرق حتى الصين وإلى الغرب حتى الأندلس وجنوب فرنسا .

تقف ياسيدى يارسول الله أمام باب الكعبة وتقول :

لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له : صدق وعده : ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء : الناس من آدم ، وآدم من تراب :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[١] .

يا معشر قريش ، ويا أهل مكة : ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا :

خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

فتقول لهم :

اذهبوا فأنتم الطلقاء .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

وبهذا أعتقت يارسول الله أهل مكة كلها الذين كذبوك وآذوك وظاهروا عليك وأخرجوك ؟

وكان لعفوك هذا أثره السريع فى دخول الجميع فى الإسلام وقد بهرهم سلوكك النبوى الرائع حتى هند بنت عتبة التى لاكت كبد عمك حمزة شهيد أحد عفوت عنها وقبلت بيعتها ، فقد وسع كرمك وعفوك كل أهل مكة ، أنت عين العناية الربانية وشمس الشريعة النبوية ، أنت الحبيب الأكرم والنبى المكرم الهادى إلى الصراط المستقيم .

ونحن ندعو الله أن يفتح أقفال قلوبنا بمفاتيح حبك كما أحبك هؤلاء الذين شملهم عفوك واستظلوا بظل سماحتك وكرمك .

وتقيم فى مكة نصف شهر تخرج بعده لملاقاة هوازن وثقيف الذين نزلوا بحنين يريدون قتالك وقد أمروا عليهم مالك بن عوف ، وقد اجتمع لك عشرة آلاف من أصحابك الذين فتح الله بهم مكة مع ألفين من أهل مكة .

وكان مالك بن عوف قد عبأ قومه وساق مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم حتى قال له دريد بن الصمة : ولم ؟

قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فقال له : راعى ضأن والله ، هل يرد المنهزم شئ ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

ولم يقبل مالك النصيحة وكمن بقومه فى شعاب ومضايق وادى تهامة ، وفى عماية الصبح والمسلمون يتقدمون لملاقاة القوم إذا بهم ينقضون على جيش المسلمين ويباغتونه ويشدون عليه شدة رجل واحد ، حتى انفض القوم لا يلوى أحد على أحد .

وتنحاز يا رسول الله ذات اليمين وتقول :

أين أيها الناس ؟ هلم إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله .

ولكن المفاجأة كانت شديدة فلم تغن المسلمين كثرتهم ، فانطلق الناس لا يلوون على شىء إلا أنك تقف فى نفر من صحابتك من المهاجرين والأنصار وأهل بيتك منهم أبو بكر وعمر وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة ابن الحارث وأيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن حاضنتك يا رسول الله وقد استشهد فى هذا اليوم وأسامة بن زيد بن حارثة .

وكان بعض أهل مكة حديثى عهد بالإسلام فتكلم بعضهم فى ذلك فقال أبو سفيان :

لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وقال غيره : ألا بطل السحر اليوم .

وطمع آخر فى قتلك يا رسول الله فها هو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة يقول :

اليوم أدرك ثأرى - وكان أبوه قد قتل يوم أحد — اليوم أقتل محمدا .

ولكنك تقف فى هذه الجماعة المؤمنة الصامدة أمام إعصار الشرك تخاطب العباس عمك قائلا :

يا عباس اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السمرة .

ويصرخ العباس بذلك النداء .

فيرد الأنصار :

لبيك . لبيك .

ويلوى كل منهم عنق بعيره فلا يقدر على ذلك فيخلى سبيله فى الناس ويندفع إلى حيث الجماعة الصامدة فى وجه الطوفان والوثنية الغادرة الهادرة .

وقد صمدت هذه الجماعة حتى انهزم القوم وارتدوا على أعقابهم .

وتقف على بغلتك البيضاء وتأخذ حفنة من تراب ترمى بهـا فى وجوه القوم وتقول :

حم لا ينصرون ! فيولى المشركون مدبرين .

وفى ذلك نزل قول الله عز وجل :

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُم أَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْكَٰفِرِين * ثُمَّ يَتُوبُ ٱللهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللهُ غَفُورٌ رحِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ آمَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَآءَ إِن ٱللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [١] .

وكان نصر المسلمين مؤزرا دفعوا ثمنه غاليـا من أرواح الشهداء واستماتة المهاجرين والأنصار فى الالتفاف حولك يا رسول الله .

وكان سبي هوازن من النساء والذرارى عدد كثير ومن الإبل ستة آلاف بعير ومن الشاء مالا يحصى .

ويأتى وفد هوازن إليك يا رسول الله يقول :

يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء مالا يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك .

---

(١) الآيات ٢٥ – ٢٨ من سورة التوبة .

فتقول لهم :

أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

فيقولون :

يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا .

فتقول لهم :

أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ، وتصلى الظهر فيقف القوم يقولون ما قلت لهم فتقول :

أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

فيقول المهاجرون :

وما كان لنـا فهو لرسول الله .

فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

وتسأل عن مصير قائد هذه الزوبعة الوثنية فتعلم أنه التجأ إلى ثقيف بالطائف يواصل تدبيره ضد الدعوة .

ولكن فطرتك تهديك دائما إلى كسر شوكة الشر فى نفوس البشر فتقول للقوم :

أخبروا مالكا بن عوف أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل .

ويعلم مالك ذلك فيخرج من الطائف ليلا على فرسه ويلحق بك يا رسول الله فترد عليه أهله وماله وتعطيه مائة من الإبل ويسلم فيحسن إسلامه ثم تزيد فى إحسانك إليه فتستعمله على قومه وعلى من أسلم من القبائل حول الطائف يقاتل بهم ثقيفا .

وهنا ترتفع أصوات بعض القوم :

يا رسول الله ، اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم .

فتأخذ وبرة من جنب بعير تجعلها بين إصبعيك ترفعها وتقول :

أيها الناس إنه والله ليس لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم .

ثم تؤلف قلوب حديثى العهد بالإسلام بكرم عطائك ، فتعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير وابنه معاوية مائة بعير وحكيم بن حـزام مائة بعير وصفوان بن أمية مائة بعير وغيرهم من الأشراف ورؤساء القبائل ثم تعطى من دونهم فى القبائل خمسين من الإبل ، وقد تحول هؤلاء إلى الثناء عليك والتحدث عن كرمك وسماحتك .

ويقبل أعرابى من بنى تميم يقول لك :

يا محمد قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم ! .

فتقول له :

أجل . فكيف رأيت ؟

فيقول لك :

لم أرك عدلت .

وتغضب يا رسول الله وما كان أقل غضبك وتقول له :

ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون .

ويتقدم عمر بن الخطاب قائلا :

— يا رسول الله ألا نقتله ؟ .

فتقـــول :

لا . دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم .

وستمر الأيام والسنون ويقف على بن أبى طالب بعد وقعة النهروان التى دارت بينه وبين الخوارج أيام الفتنة الكبرى يبحث جاهداً عن أحد القتلى ويأمر المسلمين حوله أن يجدوا فى البحث عنه بين صرعى الخوارج وهو يقول لهم : والله ما كذبت ولا كذبت ، ويحكم التمسوا الرجل فإنه فى القتلى . ويجدون فى البحث حتى يعثروا على جثته وقد عرفوه بشامة على عضده . فيخر على كرم الله وجهه ساجدا ، ثم يرفع رأسه قائلا :

والله ما كذبت ولا كذبت لقد قتلتم شر الناس .

كان هذا القتيل المارق من جيش على إلى فلول الخوارج هو ذلك الأعرابى الذى وقف يصيح فى وجهك يوم حنين يا رسول الله قائلا :

اعدل يا محمد فإنك لم تعدل .

ولم يصب الأنصار من هذا العطاء شيئاً فأخذوا يتحدثون ويقولون :

لقى والله رسول الله قومه .

ورأى سعد بن عبادة أن يبلغك ذلك يا رسول الله ويؤيدهم فيما ذهبوا إليه فجاءك قائلا :

يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء !

فتقول له :

فأين أنت من ذلك يا سعد !

فيقول لك :

يا رسول الله ما أنا إلا من قومى .

فتقول له :

فاجمع لى قومك فى الحظيرة .

ويخرج سعد بن عبادة يجمع قومه فى الحظيرة وتأتى إليهم يا رسول الله وتقف بينهم تحمد الله وتثنى عليه ثم تقول لهم :

يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم .

قالـــوا :

بلى ، لله ولرسوله المن والفضل .

فتقول لهم :

ألا تجيبونى يا معشر الأنصار !

قالـــوا :

وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المن والفضل .

فتقول لهم :

أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك ، وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فيبكى الأنصار حتى تخضل لحاهم ويقولون :

رضينا برسول الله قسما وحظا .

طوبى للأنصـــار .

لشد ما أذهلهم هذا الموقف وهم يقفون حيارى مشدوهين وأنت توزع الفىء بيمينك وشمالك على أهل مكة ومن حولها تفتح بذلك قلوبهم الموصدة للدعوة .

وقد علمت بفطرتك دنيا الأنصار وما أبعدها عن دنيا أبى سفيان وأترابه من المؤلفة قلوبهم ، وقفوا حيارى مذهولين وقد تخيلوا أن دنيا مكة قد طغت على دنياهم الخالصة لحب الله وحب رسوله .

ولكنك تخرج من كل ذلك الفىء الضخم صفر اليدين لتواجـــه جموع الأنصار القلقة تثلج صدورهم بقولك :

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟! .

لبيك وسعديك يا سيدى يا رسول الله .

فلتذهب قريش بالشاء والبعير ولتعد إلى المدينة يحف بك رجـــال لشد ما أحبوك ونصروك وأطاعوك ، رجال لا تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله .

طوبى لهؤلاء وقد شرفت دنياهم وأنرت آخرتهم .

وطوبى لنا لأننا لم نرك وآمنا بك وأحببناك ؛

وطوبى لكل مؤمن اتبع دينك ونهج نهجك وسار على هديك .

اللهم إنى أعـــوذ بك من جهلى .

وبغنـــاك من فقــرى .

وبعـــزك من ذلى ؛

وبحولك وقوتك من عجزى وضعفى .

فلما قضى زيد منها وطرا

قال تعالى :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَأَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضل ضَلَٰلاً مُّبيناً)[١] .

سيدى يا رسول الله .

أستأذن مرة أخرى قبل أن أعرض هذه الصورة الإنسانية من صور الجهاد النفسى الذى خضته فى سبيل إرساء دعائم القيم الدينية والأخلاقية لأمة الإسلام :

ويدعونى إلى ذلك أنها تتناول جانبا خاصا من حياتك يا رسول الله ، ولكن القرآن الكريم تناوله بمعجز بيانه ليكون ميراث أمتك من القيم والأخلاق والسلوك ؛

وأستأذن مرة أخرى لأسوق اعتذارى وأسفى لما بدر من بعض كتاب السيرة القدامى والمحدثين الذين تناولوا هذه الصورة من زاوية بعيدة عن حبك . . مدعين فيها (ببشرية الرسول . .)

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

وربما انساق بعضهم وراء هذه النظرية متأثرين برأى المسيحية فى مسيحها وألوهيته فأرادوا نفى ذلك (ببشرية الرسل) .

ونحن لا ننفى هذه الصفة عنك يا رسول الله ولا عن الرسل أجمعين ولكننا نقول إنها بشرية ليست كالبشرية العادية .

ونحن لا نتصور أن يكون بشرا عاديا من قال عنه العزيز الحكيم :

(وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا)[1] .

(وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى)[2] .

وكيف تكون بشريتك مثلنا وقد قال لك رب العزة :

(وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)[3] .

والذين يجعلون بشرية الرسل قضية بعيدة عن وشائج السماء ودروبها ومسالكها يجانبهم الصواب دائما .

وهو غبن كبير وحكم جائر لمكانة النبوة ومقام الرسالة .

وبشرية الرسل مسألة لا جدال فيها .

فيقول جل شأنه فى سورة الإسراء :

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٤١ من سورة طه .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إلا بَشَرًا رَسُولًا)[١].

وفى سورة الكهف :

(قُلْ إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إلَىَّ . . . . .)[٢].

وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم تأكيد على بشرية الأنبياء ، ولكننا يجب أن نفهم جيداً من روح القرآن ومكانة الأنبياء كما جاءت فيه أن بشريتهم تستلهم السماء أفعالها وتستهدى الله سلوكها وتسأل الذات العلية علمها .

إنها بشرية خاصة من معدن خاص اصطفاها الله واصطنعها لنفسه .

ولهذا فإن الرسل كلهم بشر ولكن البشر ليسوا كلهم أنبياء .

وليس أدل على أن سلوك الأنبياء ليس بشريا صرفا كسلوك باقى البشر وخاصة فيما كان له علاقة بالمبادىء والقيم والتشريع شأن الموضوع الذى نعرضه من موقف القرآن الكريم من نساء النبى .

فالقرآن الكريم يوضح لنا فى سورة الأحزاب رأيه فى كيفية سلوكهن بل ويقول صراحة أنهن لسن كباقى نساء البشر . .

---

(١) الآية ٩٣ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

فني سورة الأحزاب يقول جل شأنه :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَاءِ) [١] .

والمفهوم الواضح من سياق الآيات أنهن لسن كأحد من النساء في تصرفاتهن وسلوكهن البشرى فيما يتصل بالعلاقات والأخلاق والقيم والمبادىء .

ثم أنه ذهب إلى أوضح من ذلك حين جعل الجزاء لهن ضعفين .

فني نفس السورة يقول عز وجل :

(يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَٰلِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً) [٢] .

وهذه العناية الخاصة بسلوك نساء النبي مرجعها إلى ما جاء فى نفس السورة :

(وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ..) [٣] .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الاحزاب .

(٢) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الأحزاب .

وبهذا يتضح مفهوم هذه التفرقة الواضحة بينهن وبين نساء العالمين إذ يجب أن يكون لما يتلى من آيات الله والحكمة فى بيوتهن نتاج رفيع من السلوك والقيم والأخلاق قد لا يتأتى لغيرهن .

فاذا كان هذا وضع هؤلاء ، فما هو وضع النبى نفسه صاحب الرسالة وسفير السماء والقدوة الحسنة لأمته ؟

كيف يتأتى لنا أن نتحدث عن بشريتك يا رسول الله حين رأيت جمال زينب بنت جحش وهى فى منزل زيد كما يراه البشر العادى فيجرى لسانك بقولك : سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب . وكأنك لم ترها قبل الآن ، وكأن السماء لم تنزل قرآنا فى زواجها بزيد ؟ ! !

بل إن بعض كتب السيرة لاتخجل من الغوص إلى درك الحديث فتجعل زيدا يأتيك ويعرض عليك زوجه وهو يقول لك :

يا رسول الله ، بلغنى أنك جئت منزلى ، فهلا دخلت، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها .

والوضع والتأليف واضحان فى قول زيد ، فمن أين له أن يعلم أن زينب قد أعجبتك فعلا إن كان ذلك حقيقة .

وهذه الصورة لا تستقيم مع مكانة الأنبياء وعلو خلقهم ، ولم أر لها شبيها إلا فى التوراة المحرفة التى لطخت صور الأنبياء بكل ما يشين أحط البشر .

فكل ماجاء فى كتب السيرة خاصا بموضوع زينب حول تلك الصورة إنما هو من الإسرائيليات التى جعلت من أسفار التوراة منبعا لها.

إن للأنبياء قلوبا راسخة كالجبال شامخة كالقمم ، لا ترى إلا بعين الفضائل ولا يفتنها ما يفتن غيرها من البشر من مباهج الدنيا وإلا لضلت الرسالات وضاعت العقائد وشردت الأمم .

وإلى هؤلاء المتشدقين ببشرية محمد نقول : يجب أن تكتب السيرة بأسلوب بعيد عن المقدمات والنتائج وإنما تعالج بدموع المحبين وتأوهات العاشقين ومداد الصابرين ووجد الراغبين .

ولم أقل هذا إلا استلهاما لقول الله عز وجل وهو يصف إبراهيم الخليل عليه السلام :

(إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ) [1].

فعلى هذا الدرب يا رسول الله نتوجه إلى رحاب سيرتك لأنه درب المحبين وطريق العاشقين ، يحدونا إخلاص الموقنين ، وإنابة المخبتين العارفين بمسالك سنتك ودروب سيرتك .

وفى هذه الصورة الخاصة من سيرتك يا رسول الله نرى الكثير من القيم والمبادىء نرى العدل المطلق والمساواة المطلقة .

---

(١) الآية ١١٤ من سورة التوبة .

نرى القيم والمثل وهل كانت حياتك كلها إلا قيما ومثلا عليـــا لأمتك .

* * *

كان زيد بن حارثة ضمن رقيق لحكيم بن حزام بن خويلد فدخلت عليه يوما السيدة خديجة بنت عمته فاختارت زيدا من بين هؤلاء الرقيق ثم وهبته لك يا رسول الله فأعتقته وتمر الأيام وزيد يرى فى صحبتك الرضا والسعادة ، ويشعر أنه يتنفس هواء أنقى من هواء الدنيا حوله ، وترى عينيه شوارق أنوارك وهو يعيش فى رحابك .

ويعلم أهل زيد بمقامه عندك يا رسول الله وقد مرت السنون بعـد اختطافه وبيعه قبل أن يستقر فى بيتك حرا كريما .

فيقدم إلى مكة أبوه وعمه يطلبان منك أن يصحبهما زيد بعد غيابه الطويل ويعرضان الفداء فتقول لهما : دعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا .

وهنا ينظر إليك زيد وقد امتلأت عيناه بضياء حضرتك وغمرت نفسه نفحات حبك وذاب كيانه فى بحر أنوارك فيقول لك :

ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكان الأب والأم .

فيقول الأب والعم : ويحك يا زيد ! ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟

فيقول زيد : نعم ! إنى رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا .

وهنا تقول يا رسول الله : يامن حضروا وشهدوا إن زيدا ابنى أرثه ويرثنى .

وتعلو الدهشة وجه الأب والعم لهذه المشاهد التى تجرى أمامهم والتى تبدو غريبة عن مجتمعات القبائل فى ذلك الوقت ولكن نفس الأب قد طابت بالرضا لهذا المشهد الفريد من الحب والولاء .

وغادر العم والأب مكة واستمر زيد يدعى زيد بن محمد .

ويوم جاءك الوحى يا رسول الله برسالة ربك كان زيد أول الملبين واحتمل معك شأن غيره من المسلمين صنوف الأذى والعذاب تصبهما قريش على كل من صبأ عن ديانة أوثانها ، حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة ، فهاجر زيد مع من هاجر من المسلمين إلى المدينة .

وإذا هو يشهد غزوة بدر ويبلى فيها أحسن البلاء ، ويشهد غزوة أحد ويجاهد فيها أروع الجهاد .

وخلال هذه السنين تعامله يا رسول الله معاملة واحد من أفراد أسرتك . وتريد له زوجة تليق بمكانته فى بيتك وفى قلبك فتخطب له بنت عمتك زينب بنت جحش .

وهنا نرى الزاوية الأولى من زوايا هذه اللوحة المشرقة وفيها العدل المطلق والمساواة المطلقة ، فزيد أصله رقيق اشترته السيدة خديجة

واعتقته يا رسول الله ومهما كان من تبنيك له فلن يغير ذلك من رأى زينب وأخيها عبد الله بن جحش وقد رفضا هذا الزواج .

إنها الهاشمية القرشية تتزوج هذا العبد الرقيق الذى اعتقته وتبنيته !!

إنها بنت أميمة بنت عبد المطلب عمتك يا رسول الله .

والإسلام لاينظر إلى العدل والمساواة من هذه الزوايا .

وإنما يقيم العدل المطلق بجوار الوحدانية المطلقة . ولابد للعصبية الجاهلية أن تزول من نفوس المسلمين ولابد من التطبيق العملى لهذه القيم الدينية والأخلاقية .

وينزل الوحى بأمر ربك فى هذا الموقف :

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)[١] .

وكان هذا رأى السماء فى قضية هذا الزواج .

وتزوج زيد الرقيق الذى اعتقته وتبنيته يا رسول الله بسليلة البيت الهاشمى القرشى وبنت عمتك لتكتمل الصورة الجميلة للمساواة المطلقة ، والعدل المطلق ، وليرى المسلمون عمليا كيف تقام القيم وتغرس المبادىء ، ويمهد السبيل أمام قواعد الدعوة وليكون هذا الحكم الواضح الصريح الذى أطلقه القرآن الكريم موضع التنفيذ والتطبيق :

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ[1]) .

وتعيش زينب فى بيت زيد ، هى الهاشمية القرشية حفيدة عبد المطلب وهو الرقيق الذى أعتقته ولم يغير تبنيك له شيئا فى نفس زينب .

ولا تهدأ نفسية زينب أمام هذه الفوارق وأمام هذه الزيجة فتتعقد الأمور وتستمر هى فى الفخر بنسبها فيشعر زيد بسابق رقه وعبوديته فيتوجه اليك يا رسول الله يشتكى إليك حال زينب ويطلب منك تطليقها منه وأنت تقول له :

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللهَ[2]) .

ولكن الأمر ينتهى بطلاق زينب من زيد .

وهنا تنتهى قضية العدل والمساواة فى هذه الصورة لتطالعنا قضية التشريع وإلغاء التبنى وهى صورة متكاملة متناسقة منتظمة الأبعاد .

فالإسلام لا ينظر إلى أقدار البشر ومكانتهم بقدر حسبهم ونسبهم وإنما بقدر تقواهم وعملهم ، وقد هدم هذه النعرة الجاهلية بزواج زيد من زينب بنت جحش .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

وأراد رب العزة أن تكتمل الصورة بقضية التبنى ومدى حقوقه والتزاماته وقد كان للابن المتبنى حتى ذلك الوقت جميع حقوق الابن الشرعى من إرث وخلافه .

فنزل الوحى بقوله تعالى :

(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ * ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ[1]) .

واستكمالا لأوجه هذه القضية وتطبيقا لهذا التشريع حتى تتكامل زوايا الصورة الفريدة ، فلتكن أنت يا رسول الله مندوب السماء لتحقيق هذا التشريع لأمتك حتى يزول مارسخ فى أذهان العرب وما وقر فى قلوبهم من حقوق الابن المتبنى .

وقد كانت زينب بنت جحش بطلة قضية المساواة والعدل . وهى زوجة ابنك بالتبنى زيد ، وقد طلقها زيد ، وألغى الإسلام التبنى . فلتكن زينب هى الزوجة التى ترشحها السماء لك يا رسول الله لتنتهى نظرية التبنى عند العرب ، فلتكن هى بطلة القضية الثانية .

ولتكن أنت يا رسول الله صاحب الجهاد النفسى فى هذه القضية فتضم زينب إلى نسائك وأنت تعلم حكمة ربك وعدل تشريعه .

ولكن ألسنة الناس لاترحم حتى الأنبياء ورسل السماء .

---

(١) الآية ٤ من سورة الأحزاب .

لقد آذوهم فى مجال التوحيد والعقيدة .

فيطوف بنفسك الصافية بعض الخشية من سياط ألسنتهم والمجال هنا مجال العرف والتقاليد السارية بين قبائل العرب .

ولكن الوحى الكريم يأتيك بقول ربك :

(وَتُخْفِي فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَٰهُ . . [1]) .

وهو حديث سماوى واضح مستقيم .

وعتاب ربانى ينأى بك عن متاهات البشر وخشية ألسنتهم ويعيد إلى نفسك ضياءها وهو يساند قضيتك فى الزواج لأنها قضية السماء فيقول تعالى :

(فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا [2]) .

وتنتهى قضية التبنى بزواجك يا رسول الله من زينب بنت جحش وهى زاوية التشريع فى صورتنا هذه لتبدو لنا زاوية أخرى هى الوفاء الصافى النبيل الذى يخلد أمام الأحداث ولا تبلوه الأيام .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

فها هو زيد يمضى معك يا رسول الله صحابيا مجاهدا كبيرا يشارك فى الغزوات وهو الأمير دائما على السرايا .

وتريد له زوجة كريمة يكرمها الله به ويكرمه بها فلتكن هذه الزوجة تلك السيدة الكريمة التى تقول عنها حين تراها : (هذه بقية أهـــل بيـــتى) .

إنها أم أيمن حاضنتك يا رسول الله .

هى التى لازمتك طفلا وصبيا وشابا ونبيا . وسارت معك رحلة طويلة شاقة مع حوادث دنياك ، فوقفت معك توارى جثمان أملك عند الأبواء ، وقد احتضنتك وأنت فى السادسة تقف مبهورا لموت أمك فى طريق العودة من يثرب إلى مكة .

ثم تهاجر إلى يثرب بعد ذلك نبيا ومجاهدا وصاحب رسالة تسعى وراءك وحدها وسط متاهات الدنيا حولها وقيظ الصحراء يكاد يخلع لبها ولكن الأمل يحدوها إلى لقائك .

إنها تهاجر وحيدة من مكة إلى المدينة وتكاد تهلك عطشا وهى تجاهد الصحراء وتتعرض فيها لأبشع ألوان العذاب ولكنها ترى دلوا يدنو منها وقد تدلى من السماء فتشرب منه حتى ترتوى ، وتعيش أم أيمن بعد ذلك حتى خلافة عثمان رضى الله عنه فلا تشتكى الظمأ ولا تشعر به لأنها ارتوت من ماء الخلود ماء السماء : ماء الرضا والسكينة.

لله درك يا أم أيمن يا حاضنة الرسول يا بقية أهل بيته .

سيحفظ لك التاريخ وستروى عنك كتب السيرة كلمات قليلة إن دلت على شيء فانما تدل على بعد نظرك وثاقب فكرك وإلهامك الفطرى وكيف لا وقد عاشرت العظيم الكريم محمدا بن عبد الله .

سيحفظ لك التاريخ مقالة مختصرة اثر مصرع أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حين بلغك مصرعه فتقولين : اليوم وهى الإسلام .

وستمر الأيام وتثبت الأحداث أن مقالتك هذه هى أبلغ ما قيـل فى مصرع ابن الخطاب ، وتجلس يوما بين أصحابك يا رسول الله وتقول : من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن . فيتزوجها زيد بن حارثة ليكرمه الله بها ويكرمها به .

وجاءت له بولده أسامة بن زيد سيكون الحب بن الحب وسيكون أميرا للجيوش كما كان أبوه أميرا للسرايا .

فها هى غزوة مؤتة يعقد لواؤها لزيد وبعده لجعفر بن أبى طالب وبعده لعبد الله بن رواحة ويستشهد زيد فى هذه الغزوة ويستشهد بعده صاحباه .

ويبلغك ذلك يا رسول الله فتقول : اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد . اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لجعفر وعبد الله بن رواحة :

وتبكى ابنة زيد لاستشهاد أبيها فتبكى لبكائها حتى تنتحب يا رسول الله فيقول لك سعد بن عبادة :

يا رسول الله ما هذا ؟

فتقول له : هذا شوق الحبيب إلى حبيبه ! !

فليكن لك يا أم أيمن عزاء فى ابنك أسامة الحب بن الحب الذى قاد جيش المسلمين لغزو الروم وفيه كبار رجال المهاجرين والأنصار.

* * *

والآن وقد اكتملت هذه الصورة المشرقة الجميلة الصافية التى تحمل كل زوايا العدل والمساواة والوفاء هل نرى غيرك يا رسول الله تستوعب رحابه الطاهرة هذه القيم الفاضلة ؟

لقد كانت حياتك معينا لاينضب لكل ماترجوه العظمة الإنسانية .

وكيف لا ؟

وقد صنعت بهذه القيم أمة وأقمت دينا .

وبهذه النفحات أقامت أمتك فى الأرض حضارة وملأتها علما ونورا .

قصة الافك

قال تعالى :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[١] .

ما أوسع رحابك يا رسول الله .

وما أجمل حلمك وكرمك الذى يدعونى إلى عرض صورة خاصة من صور سيرتك المشرقة الطاهرة تلك الصورة التى اهتزت لها نفسك حزنا وألما واهتز لها بيتك واهتزت لها نفوس المؤمنين جميعاً .

إنها قصة الإفك .

وهى محنة إنسانية تخوضها يا رسول الله وتجاهد فيها لتتضح المعالم وتحدد المناهج لأمتك .

وكم فى حياتك وسيرتك من المثل والمبادىء والقيم التى تقوم كل منها كقمة فى السلوك وكعلامة فى طريق التقدم الإنسانى نحو العظمة النفسية للإنسان وكماله الخلقى .

---

(١) الآية ١١ من سورة النور .

وقصة الإفك صورة من صور الجهاد النفسى الذى خضته يا رسول الله وأبليت فيه أحسن البلاء .

أرسلك الله هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

فأعمالك هدى ، وأفعالك دعاء ، وأخلاقك نور .

وهذه الصورة التى نعرضها من سيرتك يا رسول الله توضح لأمتك كيف تسير إذا أظلمت دنيا المبادىء وغابت شمس الحقيقة وراء سحب الشك وضباب الحيرة .

وأية محنة أبشع من تلك التى يتعرض لها الإنسان حين يخوض الناس فى سمعة بيته ؟!

حتى أنت يا رسول الله لم تسلم من هذه المحنة ، لأن حياتك صورة لما يتعرض له الناس وسلوكك فيها هو مثل أمتك تحذو حذوه وتنهج نهجه وتنسج جاهدة على منواله .

سنرى فى هذه الصورة كيف استطعت بخلقك النبوى وأدبك السماوى أن تكون المعلم الفذ والمثل الأعلى حين تعبر هذا المضيق الذى يشيب لهوله الولدان .

وقد تهيأت لغزوة بنى المصطلق فأقرعت بين نسائك كعادتك دائما فخرج سهم عائشة لتصحبك فى هذه الغزوة ، وكانت خفيفة نحيفة تركب فى هودجها وقد وضع أمام خيمتها فيرفعه الرجال وهم لايكادون يشعرون بها لخفتها ، ثم يضعونه على البعير وينطلقون فى الركب .

وما إن تفرغ من عدوك وتستعد للرحيل إلى المدينة حتى يحدث نزاع يكاد يؤدى إلى فتنة .

ذلك أن أجيرا لعمر بن الخطاب ازدحم على الماء مع رجل من الخزرج فاقتتلا فصرخ الخزرجى : يا معشر الأنصار . وصرخ الأجير يا معشر المهاجرين .

ووجد عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى هذه الصرخة فرصة يشعل بها نار الفتنة بين المهاجرين والأنصار فقال : هـــذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، والله ماعدونا وجلابيب قريش ما قال القائل (سمن كلبك يأكلك) . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وتبلغك هذه المقالة فتهديك فراستك وفطرتك إلى درء الفتنة بسرعة الرحيل ولكن عبد الله بن أبى بن سلول يأتيك وقد علم أن مقالته قد بلغتك فيحلف بالله أنه ما قالها ، ولكنك تسير بالناس ليلهم ونهارهم تشغلهم عن الحديث فيما شجر بينهم .

وتنزل بهم منزلا قريبا من المدينة تريح فيه الركب قليلا فيأتيك الوحى يفضح المنافقين ويكذب عبد الله بن أبى بن سلول حين حلف أنه ما قال مقالته التى بلغتك :

(هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[1] .

وفى هذه الوقفة خرجت عائشة من خيمتها لبعض حاجتها فانفرط من عنقها عقد لها وهى لاتدرى به حتى عادت إلى الرحل فتذكرته فرجعت مكانها تلتمسه .

وجاء المكلفون بحمل هودجها فحملوه وشدوه على البعير وهم لا يشكون أنها بداخله ، وانطلق الركب يغذ السير إلى المدينة . وتعود عائشة فلا تجد بالمعسكر مجيبا ، فتلتف بجلبابها ثم تضطجع فى مكانها تنتظر أن يرجع اليها بعض الركب حين يعلمون غيابها .

وفيما هى كذلك إذ مر بها صفوان بن المعطل السلمى وقد كان قد تخلف عن الركب قليلا فرآها فى مكانها وعرفها فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظعينة رسول الله . ما خلفك رحمك الله ؟

ولكنها لم تكلمه ولم ترد عليه ، فقرب البعير وقال : اركبى رحمك الله . واستأخر عنها حتى ركبت فأخذ برأس البعير وانطلق به سريعاً يطلب القوم حتى دخل المدينة فى وضح النهار وأتى بها بيوت أمهات المؤمنين .

---

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة (المنافقون) .

وفيما أنت تقسم الغنائم والسبايا إذا بعض المنافقين يتهامسون . مابال عائشة قد عادت مع صفوان بعد عودة القوم ؟

ويتورط البعض فيخوض مع الخائضين ومنهم حمنة بنت جحش شقيقة زينب زوجتك يا رسول الله لعلها تنال من عائشة لتحظى أختها بمكانتها عندك ، ومنهم قريب فقير لأبى بكر الصديق كان ينفق عليه هو مسطح بن أثاثة ، ومنهم حسان بن ثابت .

ويقود عبد الله بن أبى كبير المنافقين هذه الحملة المغرضة على بيتك يا رسول الله ، وإذا أنت لاتدرى أية ريح تلك التى تهب على أحب زوجاتك إليك وأقربهن إلى قلبك ، فتبحث فى تصرفاتها فلا تجد عليها أى غبار وإذا هى دائما الصديقة بنت الصديق .

وتمرض عائشة فلا تجد منك يا رسول الله غير الإعراض الواضح عنها وهى لاتدرى سبباً لذلك ولا تعلم شيئاً عما يدور حول سمعتها فتطلب منك أن تمرض فى بيت أبيها فلم تمانع ، وقد منعك حياؤك النبيل أن تواجهها بشىء .

وقد ظلت مريضة أكثر من عشرين يوما وهى لا تدرى شيئاً مما يدور من حديث حول قصة الإفك وما يلوكه المنافقون من أقاصيص .

ولكنك تقف يا رسول الله بشجاعة نادرة وتخطب الناس قائلا :

(أيها الناس ، ما بال أناس يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهن غير الحق والله ما علمت منهن إلا خيرا ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما دخل بيتا من بيوتى . إلا وهو معى) .

وثارت نفوس المخلصين الذين يحيطون بك يا رسول الله .

فقام أسيد بن حضير قائلا : يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفكهم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

فقام سعد بن عبادة يرد عليه : كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا .

فيرد عليه أسيد : كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتثاور الناس وثار بعضهم على بعض وكادت تحدث الفتنة .

ويصل الخبر كله أخيراً بطريق الصدفة إلى عائشة . تعلمه من أم مسطح هذا الذى خاض مع الخائضين فى سمعتها ويكاد شامخ كبريائها ينهار أمام هذا الاتهام الجائر وهى زوجة الرسول وبنت الصديق ، فلا تجد غير العبرات تزيل بها بعض الألم الذى يعتصر كيانها ويهز وجودها وتقول لأمها : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به وبلغك ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً .

فتقول الأم : أى بنية خفضى الشأن فوالله قلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها .

وتختار الزوجة الطاهرة الشريفة فى أمرها ولا تدرى هى الأخرى أية ريح تلك التى هبت عليها وعلى سمعتها ، وأى هدف ذلك الذى اختاره المنافقون لهجومهم على الرسول الكريم .

إنها محنة إنسانية يحتاج الإنسان إلى جبال من الصبر ليصمد أمامها ، ولا يقدر على اجتيازها إلا الأنبياء والمرسلون ومن سار على دربهم من الصديقين .

وتذهب يا رسول الله إلى منزل أبي بكر وتدعو أسامة بن زيد وعليا ابن أبي طالب تستشيرهما .

فيقول أسامة : يارسول الله أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب ، والباطل .

أما على بن أبي طالب فيقول : يارسول الله ، إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف .

ثم يشير باستجواب جارية عائشة فيستجوبها ويغلظ لها القول ولكنها تقول : والله ما أعلم إلا خيراً .

وتبلغ المحنة ذروتها وتصل إلى نقطة لابد أن تصل إليها بعد هذه الأيام من التيارات والأعاصير التى يغذيها المنافقون لمحاولة النيل من الرسالة فى شخص صاحبها ، فتتقدم يارسول الله بنفسك إلى عائشة تواجهها بكل ما يقول الناس وكان ذلك أمام أبويها فتجلس وتحمد الله وتثنى عليه ثم تقول :

(يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وإن كنت قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله إن الله يقبل التوبة عن عباده) :

ولا تجد عائشة إلا البكاء تنفس به عن مرجل الألم الذى يكاد ينفجر داخلها وقد ثار الدم فى عروقها وهى تقول لأبويها : ألا تجيبان رسول الله ؟

فقالا : والله ما ندرى بماذا نجيبه .

فتقول عائشة : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا والله لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، لأقولن مالم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما تقولون لاتصدقوننى . ولكنى أقول كما قال أبويوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) .

والسماء تشهد هذا الصراع ولكنها تتركه حينا لتصهر النفوس وتختبر القلوب وترسى دعائم ما تريده من تشريع بعد ذلك ؛ فيأتى الوحى فى لحظة كانت عائشة فيها أشبه بالغريق فى بحر لا قرار له وهى المظلومة المكلومة .

والسماء تفتح أبوابها دائماً لدعاء المظلومين الذين أرقهم الشوق إلى العدل والإنصاف واشتاقت نفوسهم إلى نفحة من نفحات العطف والحنو تمسح ما ران على قلوبهم من ألم الاتهام وندبات الظلم .

فلم تبرح مكانك يارسول الله حتى يغشاك وحى ربك ثم سرى عنك وقد تصبب عرقك فتقول : (أبشرى يا عائشة قد أنزل الله براءتك) .

وتخرج وتخطب الناس وتتلو قول الله جل شأنه :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ[1]) .

وقد أمرت بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصحوا بالفاحشة وخاضوا فى سمعة عائشة فضربوا حدهم.

ثم جاءك الوحى بقوله تعالى :

(وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[2]) .

وقد نزلت عقوبة رمى المحصنات فى قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ

---

(١) الآية ١١ من سورة النور .

(٢) الآيات ١٦ — ١٩ من سورة النور .

فَاجْلِدُوهُمْ ثَمٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰدَةً أَبَدًا وَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[1]) .

وقد شمل عفوك حسان بن ثابت وأمرت أبا بكر أن يعفو عن مسطح بن أثاثة وكان ينفق عليه فحلف ألا ينفق عليه شيئاً أبداً بعد أن قال فى عائشة ما قال .

ولكن السماء لا ترضى عن هذه الأساليب وإنما تروض النفوس دائماً للسير على دروب الهداية فينزل الله جل شأنه فى معجز بيانه :

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَسٰكِينَ وَالْمُهٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[2]) .

فيقول أبو بكر : والله لأحب أن يغفر الله لى .

فعفا عن مسطح وصفح عنه وأعاد النفقة إليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

وانتهت بذلك هذه المحنة الإنسانية التى أراد رب العزة أن يمتحنك بها يا رسول الله ويمحص بها قلوب المؤمنين ويكشف نفاق المنافقين وليضع القواعد لسلوك المسلمين فى أدق العلاقات بينهم .

---

(١) الآية ٤ من سورة النور .

(٢) الآية ٢٢ من سورة النور .

وإنها لصورة رائعة لجهادك النفسى الذى وصفته بالجهاد الأكبر .

ويعلم الله كم جاهدت فى كل الميادين يا رسول الله لتترك لنا ثروة ضخمة من الصور المشرقة فى رحاب سيرتك لتكون لنا هديا ونورا :

الوفاء الجميل

قال تعالى :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ [١]) .

سيدى يا رسول الله .

إلى رحابك الطاهرة ألوذ بمركبى وقد دفعه الحب وساقه الشوق إلى كل جميل وثمين من سيرتك العطرة .

وقد ولجت باب رحابك مستأذنا والنفس قد أرقها السهد وأضناها الندم فاذا نفحات هديك تشمل دنيانا بعطرها النبوى فتشيع فى النفس أملا ورجاء يذيب جلاميد اليأس والقنوط .

وإذا كنت قد عرضت بعض صور سيرتك العطرة يا رسول الله وكلها تمتلىء وتزدحم بالقيم والمثل والمبادىء فان هذه الصورة التى بين أيدينا على صغرها تحوى أجمل ما فى الوجود من القيم الإنسانية لأنها توضح لنا الوفاء الذى لاتبلوه الأيام .

---

(١) الآية ١١٣ من سورة التوبة.

والوفاء عندك يا رسول الله قيمة أخلاقية لها جذور عميقة ترتبط بالسماء بوشائج وثيقة .

وأنت سليل ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .

والقرآن يصف ابراهيم بقوله الكريم :

(وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّى[1])

ويقول عن اسماعيل :

(إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا[2]) .

وصدق الوعد فرع من فروع الوفاء ؟

فالوفاء عندك شيمة أخلاقية وفطرة إنسانية تجرى فى دماء آل البيت رحمة الله وبركاته عليهم منذ عهد ابراهيم الخليل ؟

فأنت الوفى ابن الأوفياء .

وما أجمل نفسك الطاهرة تحمل بين حناياها على مدى السنين وفاء نادرا لمن أدوك إلى الناس وحموك من كفار مكة وشمس الإسلام فى بدء شروقها ؟

ثم ما أجمل هذا الوفاء الذى يصدر عنك يا رسول الله إلى أحب الناس إليك فى دنياك طفلا وشابا بعد أن أكرمك الله بالرسالة ورفع ذكرك وإذا هذا الوفاء لا يكاد يغنى هؤلاء شيئا ؟

---

(١) الآية ٣٧ من سورة النجم .

(٢) الآية ٥٤ من سورة مريم .

لقد بعثك الله بأسمى رسالة ختم بها ديانات السماء .

وأرسلك هاديا ومبشرا ونذيرا .

وأسرى بك من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

وعرج بك إلى السموات العلى ليريك من آياته وليشهدك وحدة الكون الأزلية ولترى وتسمع مالا عين رأت ولا أذن سمعت .

وبعثك ربك بالإسلام دينا تنير به للدنيا مصابيح الهداية والرشاد وتفتح لأمته أبواب الخير فى الدنيا والآخرة ما دامت فى ركب الإسلام سائرة وتحت ظل الإيمان عاملة .

ولكن كل هذه الرفعة وكل هذا السمو وكل هذه العظمة لاتجدى شيئا فى موقفين فيهما الكثير من الأسى والألم وإن دلا على وفاء كبير لا ينضب معينه .

فبعد ست سنوات من هجرتك تخرج من المدينة إلى مكة معتمرا إلى بيت الله الحرام والمسلمون فى ركابك يسوقون الهدى .

وفيما أنت فى بعض الطريق عند الأبواء تقف بالركب كله وتعرج على قبر تستأذن ربك الكريم أن تزوره فيأذن لك فتجلس أمامه تصلحه ويحدوك الأمل فتستأذن ربك الكريم فى أن تستغفر لصاحبته فلا يأذن لك جل جلاله وعلت قدرته .

وتنصرف عن القبر باكيا حزينا ، ويبكى المسلمون لبكائك ويحزنون لحزنك .

إنه قبر أمك آمنة بنت وهب .

وقد أهاجت الذكرى أشجانك فرأيت أمك وقد اختطفها الموت منك فى هذا المكان بعد عودتك معها من زيارة أخوال جدك من بنى النجار فى يثرب ، ويريد رب العزة أن تتركك يتيما صغيرا فى هذا القفر الموحش بعد أن أدتك إلى الناس .

وتقف فى طفولتك المبكرة ترى أم أيمن حاضنتك وهى توارى جثمان الغالية آمنة ، وتشعر بمرارة اليتم ولوعة الفراق ، ولتتلقى من ربك كيف تتحمل الخطوب وأنت مازلت فى أول الطريق .

وتمر الأيام ، ويعزك الله ويشملك بكرمه فيصطفيك ويبعثك رسولا نبيا يتم بك نعمته على بنى البشر ، فاذا أنت صاحب رسالة ورسول دين ، تخرج بجموع المسلمين حاجا إلى بيت الله الحرام عام الحديبية تحمل لواء الدعوة الإسلامية ، وترهب أعداء الله بقوة المهاجرين والأنصار ومن نفر معك من قبائل العرب ، ويقابلك قبر أمك فى بعض الطريق فتستأذن فى زيارته فيؤذن لك وتستأذن فى الاستغفار لها فلا يؤذن لك .

عدل إلهى وحكمة ربانية لا سبيل إلى إنكارهما ، ومعنى من معانى رسالتك السامية يارسول الله لتحقيق العدل والمساواة لجميع المسلمين ولو كانت صاحبة القبر أم محمد رسول الله وخاتم النبيين ، ولو أذن لك رب العزة فى الاستغفار لأمك لكان للمسلمين هذا الحق .

وكنت وما زلت القدوة لأمتك ، فليكن هذا الدرس العظيم فى المبادىء والقيم من ربك الكريم هديا لنـا ونبراسا لسلوكنا .

وليكن عنوانه عظمة المبادىء وسمو القيم .

وتمر الأيام والسنون وإذا أنت تدخل مكة عام الفتح رافعا أعلام التوحيد قاضيا على الشرك والمشركين وقد أتم الله عليك نعمته وأثابك فتحا مبينا .

وتجد فى مكة أصل قبر تستأذن ربك فى أن تستغفر لصاحبه فلا يأذن لك جل شأنه .

وتبكى يا رسول الله أمام قبر عمك أبى طالب كما بكيت أمام قبر أمك آمنة بنت وهب .

ما أوفاك وما أخلصك لأهلك يا رسول الله .

وما أروع وفاءك لعمك بعد هذه السنين الطويلة من الجهاد والكفاح فلم تنس أنه حماك من أذى قريش وتحمل الكثير من العنت فى سبيل ذلك .

وقد ألحت عليه قريش يوما أن يتخلى عنك ويسلمك لها فقال لك : فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

وتشفق يومها عليه وتعلم ضخامة ما يتعرض له من الضغط من مشركى قريش ، ولكنك تقرر أن لا مجال للإشفاق فى مثل هذه المواقف الحاسمة فتقول له :

(والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) .

ويعلم أبو طالب صلابة الحق فى مقالك ويشعر بكل معانى الصدق والأمانة والعزم فى نبراتك فيقول لك : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً .

وينجح فى جمع شمل بنى هاشم لحمايتك ضد عدوان قريش ، ويتعرض بذلك لشتى أنواع العنت والإيذاء .

وتمر الأيام والسنون ويكرمك الله بنصره يوم فتح مكة فيدعوك وفاؤك إلى طلب الاستغفار له فلا يأذن لك المولى جل شأنه .

عدل ومساواة لا استثناء فيهما ولا مجاملة ولو كان صاحب الحاجة نبى الله ورسوله .

ولنا أن نستعرض هذه الصورة مرة ثانية لنستنتج منها العبر والعظات ولنرى كيف تكون المثل العليا لبنى البشر وهذا حظك يا رسول الله حين أردت أن تستغفر لعمك وأمك وقد ماتا على غير دينك الذى جعل الناس جميعا أمام الله سواء فى الحقوق والالتزامات ووضعهم فى ميزان دقيق بالنسبة لأمور العقيدة :

فرغم أمومة آمنة لأشرف نبى وأكرم إنسان .

وعمومة أبى طالب لنبى الرحمة ورسول الإحسان .

ورغم تأريخ المسلمين لوفاة أبى طالب مع السيدة خديجة بعام الحزن لما نالت قريش منك يا رسول الله من الأذى ما لم تكن تنساله فى حياة عمك ، فإن هذا كله لم يشفع لهما فى موقف لم تؤد فيه غير واجب الاستغفار لأحب الناس إليك ، أمك التى أوتلك إلى الدنيا تؤدى فيها أمانة الرسالة التى انتدبك لها رب العزة .

وعمك الذى ساندك وحماك فى مطلع دعوتك وسياط الوثنية تلهب ظهور المستضعفين الذين لبوا دعوتك وأجابوا نداءك لم يثنه عن ذلك قسوة الإعصار الوثنى المدمر الذى أعماه الحقد وذهبت بصوابه العصبية الجاهلية .

وهو درس رفيع لأمة الإسلام وقادتها ليروا موقف السماء من المحاباة والمجاملات التى تأكل الحقوق وتقضى على العقيدة وتجعل القيم الأخلاقية كالآثار الدارسة .

وما أحوجنا ونحن نخوض فترة من أقسى فترات تاريخنا أن نستلهم هذا الخلق النبوى ونحذو حذوه ونسير على نهج هذا التشريع الذى أبى عليك يا رسول الله وعلى المؤمنين جميعا أن يستغفروا لمن مات لهم على الشرك ، ولو كان منهم أمك آمنة بنت وهب أو عمك أبو طالب .

وفى هذا يقول جل شأنه :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ

الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)[1] .

تبـاركت يارب حكمتك .

وجلت قدرتك .

لك العتبى حتى ترضى .

ولا حول ولا قوة إلا بك .

---

(١) الآيتان ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

يانساء النبى

قال تعالى :

(يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)[١] .

وتلك صورة إنسانية بالغة الروعة فى رحابك يارسول الله قد نرى لها مثيلا فى كل بيت ، ولكن عظمتك الإنسانية لانجدها عند كل الناس لأنك المثل والقدوة والأسوة الحسنة :

فأنت فى بيتك رسول السماء ونبى الله ومثل السمو الأخلاقى فى كرم الطباع وسعة الصدر ورفق المعاملة . والسماء دائما ترعى هذا كله وتنميه وتزيده صلة بمعاملات البشر ، لتربط الأخلاق بالدين ليكون منبعها السماء ومنهجها القرآن .

فالأخلاق هنا ترتبط دائما بالقيم الدينية وتقوى الله وحبه وطلب رضاه وهو ماعملت دائما على غرسه يارسول الله لنجنى ثماره ونحصد خيره .

---

(١) الآية ٣٢ سورة الأحزاب .

وما أبعد هذه المفاهيم العلوية التى تنبع من هديك وسلوكك بتلك المفاهيم التى تربط الأخلاق بالمجتمع أو تربطها بالمصلحة العامة أو تربطها بالفرد أو تربطها بالمذاهب والعقائد الوضعية .

إن الولاء هنا سيكون لغير الله فاطر السموات والأرض .

وحاشا لله أن يكون ذلك نهجنا أو تلك دروبنا التى نسلكها إلى تقوى الله .

أسوق هذا الحديث بين يديك ياسيدى يارسول الله لأننى ماوجدت لك موقفا إنسانيا يرتبط بزاوية أخلاقية أو سلوكية تجعله يجرى على غيرك كما يجرى عليك إلا ورأيت السماء تمدك بهديها وترسم لك الأسس والقواعد وتخط المسالك والدروب لنرى كيف يكون التصرف فى مثل هذه المواقف العارضة فى حياة البشر وقد تزيدنا علما فتضع الحدود للمخالفات أو تشرح ماخفى علينا من حكمة الأفعال .

وقد رأينا ذلك فى قصة الإفك وقصة زينب بنت جحش وغير ذلك كثير فى رحابك يارسول الله .

والصورة الإنسانية هنا تعرض لنا الحلال فى بيتك وبين نسائك وكيف أن السماء لم تغفل عينيها عن سلوكهن حتى يكن المثل الصالح لنساء المسلمين .

فها هو الوحى ينزل ليضرب الحجاب على نساء المسلمين فيبدأ بنسائك أولا :

(يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ من جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً)[١] .

ثم نرى العلى القدير يكرمهن أجمل الكرم ويؤثرهن بأكبر نصيب من الفضل الإلهى حين ينظم لهن التعامل مع هذا السيل الجارف من البشر الذين كانوا يغدون على بيتك يارسول الله يتجاذبون أطراف الحديث وأنت تستحيي منهم ولكن الله لايستحيي من الحق ثم يقرن ذلك كله بالنهى القاطع عن زواج نسائك من بعدك وهو غاية الكرم من الله جل شأنه وفضل منه عظيم . في ذلك يقول الله تعالى :

(يَـٰأَيُّها ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَاتَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَاهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُواْ ولا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحيِى مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَايَسْتَحيِى مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ . ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ

---

(١) الآية ٥٩ منسورة الأحزاب.

وَقلوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللهِ عَظِيمًا)[١] .

ورغم هذا الكرم الربانى فقد كنت دائما الزوج العادل والأب الرحيم والأخ العطوف ويكون ذلك كله سبيلا إلى أن تناقشك زوجاتك ويراجعنك فى بعض أمور دنياهن ، حتى عمر بن الخطاب يناقش مرأته ذات يوم وإذا بها تقول له : عجبا يابن الخطاب أما تريد أن تراجع أنت . وأن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان .

وتثور نفس عمر لما سمع عن حفصة ابنته وكيف تراجعك يارسول الله فيأخذ رداءه ويخرج حتى يسألها ويقول لها :

— يابنية إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فتقول له ابنته : والله إنا لنراجعه ؛

فيقول لها عمر ناصحا محذرا : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يابنية لايغرنك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها .

ويتركها ويدخل إلى أم سلمة زوجك يارسول الله وقريبة عمر فيقول لها ويحدثها بمثل ماحدث به ابنته حفصة ، وترد عليه أم سلمه : عجبا

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

يابن الخطاب ، قد دخلت فى كل شى حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .

وتمر الأيام . . .

ويستأذن عمر وأبوبكر عليك يارسول الله فتأذن لهما . وقد جلست بين نسائك وقد علا الحزن وجهك الكريم . فيعلمان بفطرتهما السليمة مايكون قد عكر صفوه . فيحاول عمر أن يسرى عنك فيقول :

لأقولن شيئا أضحك النبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله . لورأيت بنت خارجة — زوجة عمر — سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت — أى ضربت عنقها .

وتضحك يارسول الله وأنت تقول : هن حولى يسألننى النفقة .

فيقوم الصديق ويضرب عنق عائشة ، ويقوم عمر ويضرب عنق حفصة ، وهما يقولان : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده .

سبحان الله . . ! !

نبى الإسلام ، خاتم النبيين والمرسلين ورافع أعلام التوحيد ومحطم الوثنية لايملك من مباهج الدنيا المادية مايستطيع به أن يسعد هؤلاء الزوجات ؟

وفى هذا يقول جل شأنه يكبح جماح دنياهن :

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)[1] .

وتمر الأيام . . .

وتدخل عند احدى نسائك فتأكل شيئا من العسل أو بعضا من الحلو وتطيل عندها المكوث وإذا بهولاء الزوجات يتواطأن على أن من تدخل عليها اولا فلتقل لك : إنى لأجد ريح مغافير وهو شيء حلو له رائحة كريهة وماكان أبغض إليك من الرائحة الكريهة .

وإذا الأمور تنتهى إلى ماأردن .

فتدخل على إحداهن فتقول لك يارسول الله مااتفقن عليه .

فترد بأنك ماشربت إلا عسلا أو ماأكلت إلا حلوا ولن تعود إليه .

وتدحل على أخرى فتقول ماقالت الأولى : وتجيب عليها نفس الإجابة .

وتقوم عائشة وحفصة وسودة رضى الله عنهن جميعا بكل هذا حتى ينتهى بك الأمر إلى تحريم ما أكلته على نفسك .

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .

وتذهب حفصة يوما إلى بيت أبيها لشأن من شئونها وتعود لتجد مارية معك فى دارها فتجلس تنتظر خروجكما وقد أكلتها الغيرة ثم تخرج مارية أم إبراهيم فتندفع حفصة إليك وهى تقول : لقد رأيت من كانت عندك والله لقد سببتنى وماكنت لتصنعها لولا هوانى عليك .

وتعلم يارسول الله مافعلت الغيرة بحفصة وما يمكن أن تفعله بعائشة وغيرها من نسائك من أمهات المؤمنين لو أذاعت حفصة ما حدث وبخاصة وهن يغرن من مارية لأنها أم إبراهيم ابنك منها .

فتسر إلى حفصة ألا تحدث إحداهن بشئ من كل هذا الذى دار ، ثم تحلف لها بأن مارية حرام عليك بعد ذلك إرضاء لها وإطفاء لنار الغيرة فى قلبها ولكن حفصة لاتستطيع كتمان السر فتخبر عائشة وتشيع القصة كلها بين زوجاتك ويتخذنه ذريعة لزيادة غيرتهن من مارية أم إبراهيم ثم يبعثن زينب بنت جحش إليك لتقول لك إنك لاتعدل بينهن ثم تدور مناقشة عنيفة بين زينب وعائشة أمامك يا رسول الله وتشهد هذه المنازعات بين نسائك تدور أمامك تدل على الحرية داخل المنزل بينك وبين زوجاتك ثم تدلنا على سعة صدرك وسمو خلقك فتعلم أنه لابد من درس يعلمهن أنهن لسن ككل النساء وأنهن زوجات رسول وفى بيت نبوة وأن دنياهن أضيق من أن تتسع لمثل هذه ، المشاحنات التى تعكر صفو الهدوء العائلى فى وقت أنت أحوج إليه يارسول الله لنشر الدعوة .

وإذا بك يارسول الله تقرر هجر أزواجك كلهن ويستمر هذا الهجر شهرا كاملا وقد ذاع بين المسلمين أنك تسرحهن سراحا جميلا .

وتخلو إلى رسالتك بعد أن أفاء الله عليك بعد فتح مكة توطد أركانها وترسى قواعدها .

ولكن المسلمين يحزنون لحزنك ويألمون لألمك ولا يجرؤ أى منهم على أن يفاتحك فى موضوع نسائك ، ويشيع بين المسلمين أنك ستطلقهن وهنا يندمن ويحزن وتأكلهن الحسرة والألم والندم لإغضابك يارسول الله، وإضاعة وقتك الثمين فى فترة دقيقة من فترات الدعوة الإسلامية .

ويأتيك عمر بن الخطاب يرفع صوته بالاستئذان مناديا غلامك رباح رافعا صوته حتى تسمعه :

يارباح ! ! استأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يظن أنى جئت من أجل حفصة ، والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها .

وتأذن له يارسول الله ، فيدخل عمر ويبكى حين يرى الحصير الذى تنام عليه وقد ظهرت آثاره على جنبك .

ويرى معك قبضة من شعير هى زادك فى مقامك هذا بعيدا عن أهل بيتك .

ويقول لك عمر : يارسول الله . ما يشق عليك من أمر النساء ؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون جميعا .

ومازال يحادثك يارسول الله حتى سرى عنك وعادت الابتسامة إلى وجهك الكريم وهنا يجد عمر فرصة يسألك عما يدور بين المسلمين من طلاق نسائك ، فتطمئنه أنك لم تطلقهن فيستأذن فى نشر الخبر بين المسلمين فتأذن له .

فيخرج عمر إلى المسجد وينادى بأعلى صوته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلق نساءه .

وهنا بعد هذا الهجر الجميل والدرس الواعى ينزل وحى السماء يحسم الموقف ويهذب السلوك ويضع المعالم على المسالك والدروب حتى لا تشرد النفوس فيقول :

(يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ * إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا)[١] .

وهنا يعود لنسائك رشدهن ويعلمن أنهن لسن كنساء العالمين لأنهن أزواج نبي كريم يخيرهن بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة فيخترن الله ورسوله وجزاء الآخرة ويكن أهلا لقوله تعالى :

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)[٢] .

وهذا ما أراد الله جل شأنه لنسائك يارسول الله .

---

(١) الآيات ١ — ٥ من سورة التحريم .

(٢) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الأحزاب .

والله سبحانه وتعالى يشد أزرك ويهديك دائما إلى طريق الحق والرشاد .

وطوبى لك يارسول الله .

والله هاديك وجبريل مبلغك .

وطوبى للمؤمنين الذين يستظلون بظل القرآن . وينهجون نهجك ، ويلتمسون فى رحابك أمثلة يحتذونها . ودروسا يعملون بها . وهديا يسيرون فى ركابه ، ونورا يهتدون به فى ظلمات الدنيا . من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .

الوداع أيها الناس

قال تعالى :

(ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا)[1] .

إنها صورة تثير فى النفس اللوعة والألم والحزن .

صورة الوداع ، لأنها تحوى خطبة الوداع .

ولا أستطيع أن أعلق عليها يارسول الله لأنها أبلغ من أن يعلق عليها إنسان : كان اليوم يوم الحج الأكبر .

وقد أفاء الله عليك نعمة النصر والفتح ، وهدى بك أمة العرب وترك بين يديها كتابه الكريم لتفتح به آفاقا جديدة يريد الله أن تبلغها حتى آخر الزمان .

وقد قمت على ناقتك القصواء فحمدت الله وأثنيت عليه وناديت المسلمين بصوتك الجهورى وقد جعلت ربيعة بن أمية بن خلف يردد كل مقطع من مقاطع خطبتك ؟

(يأيها الناس . اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا) .

---

(١) من الآية ٣ من سورة المائدة .

يأيها الناس . إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون :

قضى الله أنه لا ربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب .

أما بعد أيها الناس . فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا : ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفرو يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .

وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ؛ وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة . فان فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس . اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم .

اللهم هل بلغت ؟ .

ويجيب الناس بصوت تردده الدنيا : نعـم .

فتقول لهم : اللهم اشهد . .

وتنتهى من خطبتك — خطبة الوداع — فتنزل عن ناقتك وتتم مناسك حجك .

وينزل الوحي بقوله تعالى :

(ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا)[1] .

ويبكي الصديق أبو بكر فقد علم تمام الرسالة وأن لقاءك لربك قد حان .

وتنتهي حجة الوداع . وتودع البيت الحرام ومكة كلها وتعود إلى المدينة التي نصرتك وآزرتك وقد قلت لأهلها : (المحيا محياكم والممات مماتكم) . .

وترجع إلى المدينة ليكون الوفاء لها حيا وميتا .

وقد انتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية ودخل الناس في دين الله أفواجا وهم ينظرون إليك كصاحب السلطان الديني والسياسي لتلك الأمة الناشئة . أمة الإسلام ، ولكنك ياسيدي يارسول الله مازلت تحلب شاتك وترقع ثوبك وتخصف نعالك ، وتخدم نفسك ، وتأكل طعامك مع خادمك . ولم يتسلل إلى نفسك الصافية في أية لحظة قدر ولو ضئيل لمظاهر السلطان أو حب الاستعلاء وأنت صاحب كل هذه الأمجاد التي روينا جزءا منها فيما سبق من كلمات فما زلت القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لأمتك حتى آخر الزمان ، تلبي دعوة العبد

(١) من الآية ٣ من سورة المائدة .

كما تلبى دعوة الحر وتعطف على الأمة واليتيم والمسكين وما زلت كما قالت لك رفيقة الكفاح الأولى سيدة نساء المسلمين خديجة بنت خويلد : تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتحمل الكل وتقوى الضعيف وتعين على نوائب الحق ؟

ثم زادتك الرسالة علما وهديا من ربك العزيز الحكيم .

وقد انتهت سفارة جبريل الأمين بين السماء والأرض وعرض الكتاب عليك كما أراد له رب العزة أن يكون .

وتمت رسالتك يارسول الله ؟

رسالة تلقى القرآن وتبليغه للناس ؟

ورسالة الأسوة والقدوة والأعمال والأقوال لأمتك ؟

فيحفظ لنا التاريخ نفحات لا نكاد نعثر على مثيل لها من مأثور الأقوال ؟

واستأذنك فى إيراد بعض أمثلة تهذيبك لنا من درر كلماتك وحديثك :

تقول يارسول الله عن التوبة :

(والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم) .

وتقول فى حسن الخلق وجمال العشرة ولين الجانب :

(أتدرون ما المفلس . ". قالوا المفلس منا من لا درهم له ولا متاع ، فتقول : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار) ؟

وتروى لنا عن ربك فى حديث قدسى رائع عظيم دستور التعامل مع دنيا الله :

يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ؟

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم .

ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنسكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنسكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

ونحن نستطيع بهدى هذه الأنوار التى طلعت علينا من شوارق نفحاتك ياسيدى يارسول الله أن نسرد بعض درر مقالاتك التى عثرنا عليها وسط آلاف الدرر المتلألئة فى رحاب سيرتك والتى تأدب بها صحابتك وطلعت علينا رغم مرور القرون بجمال بريقها وبلاغة صياغتها لتكون لنا أمثلة تحتذى للبلاغة من ناحية ولمحاسن محتواها من ناحية أخرى .

هذه الدرر التى بنيت بها مجتمعك الإنسانى المثالى فى مدينة هجرتك :

تقول يارسول الله :

لا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له .

الناس معادن .

رحم الله عبدا قال فغنم أو سكت فسلم .

ذو الوجهين لا يكون وجيها عند الله .

إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ؛

اتق الله حيثما كنت — واتبع السيئة الحسنة تمحها . وخالق الناس بخلق حسن .

الظلم ظلمات يوم القيامة .

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت .

كل معروف صدقة .

لا يدخل الجنة قتات . أى نمام .

الحياء لا يأتى إلا بخير .

إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى :

إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ؛

ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب .

إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

من لا يرحم لا يرحم .

ما من مسلم غرس غرسا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة .

طعام الإثنين كافى الثلاثة وطعام الثلاثة كافى الأربعة .

ولا يكفى مقامى هذا لسرد المزيد من جميل قولك وبليغ حديثك الذى أدبت به أمة وأشدت دينا وأقمت دنيا على أساس متين من العقيدة الصحيحة والأخلاق القويمة .

* * *

وتبقى فى المدينة تفكر فى أمر الدعوة خارج الجزيرة العربية فتبدأ فى تجهيز جيش أسامة بن زيد لترد للإسلام هيبته بعد غزوة موتة .

ولكن المرض يشتد عليك يارسول الله .

وإذا بك ذات ليلة تصطحب مولاك أبا مويهبة إلى البقيع حيث مقابر المسلمين بالمدينة فتقول له :

(إنى أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معى) :

وتقف مع مولاك يارسول الله وتخطب فى أهل البقيع .

(السلام عليكم ياأهل المقابر ، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها الآخرة شر من الأولى) .

ثم تستغفر لأهل البقيع الراقدين تحت الثرى .

وتعود مع مولاك وتقول له :

يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة .

فيقول أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

ولكنك تجيبه يارسول الله : لا يا أبا مويهبة : لقد اخترت لقاء ربى والجنة .

وتحين لحظة ما نظن أن مثلها مر بالعالم فى أزليته الخالدة لحظة تشابه لحظة نزول الوحى يوم غار حراء حينما أنزل عليك ربك :

(اقــرأ)

تلك هى لحظة تلقى ربك فى حجرتك تلك التى تجاور مسجدك يارسول الله ، والمسلمون ينتحبون يأكلهم الحزن والأسى ويعتصرهم ألم الفراق .

وأى فراق هذا ؟

إنه فراق نبوتك وجميل خلقك ، أنت صاحب الرسالة ، ورافع لواء التوحيد ، وسفير السماء لأهل الأرض ، أنت النبى الإنسانى البار بهم الهادى لهم .

وتروى السيدة عائشة فتقول :

وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول (بل الرفيق الأعلى من الجنة) قلت خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

واخترت الرفيق الأعلى يارسول الله . وخيرا ما اخترت .

فما كان لمثلك رفعة وسموا ووفاء وصدقا لربك أن تعدل بما اخترت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة .

إنها روحك الطاهرة السامية ما أكرمها وما أعلى مقامها لدى بارئها .

وصدق على بن أبى طالب رضى الله عنه حين قال لك وأنت مسجى أمامه : بأبى أنت وأمى يارسول الله ما أطيبك حيا وميتا .

ما أطيبك ياسيدى يارسول الله حيا وميتا .

ويكفينا طيبك يفوح علينا عبر القرون لا تبلى الأيام جمال ريحه .

وتكفينا سيرتك العطرة الطاهرة نراها كلها أمثلة تحتذى :

فعلى طريق المحبين ودروب العاشقين نسير إلى رياض سيرتك لعلنا ننعم بعبيق جنانك وجمال غرسك

وما أجمل كرمك .

وما أجمل جهادك .

وما أجمل خلقك .

وما أوسع رحابك ياسيدى يارسول الله .

رجــاء

أبا الزهراء ..

رجائى ألا أكون قد تطاولت فى مقام حضرتك ومجال سيرتك .

فما دفعنى إلى الحديث إلا كرمك النبوى وهذا الأمل الذى راود نفسا أرقها السهد وأضناها الندم ، فلجأت إلى رحابك تنعم بنفحات هديك :

وما أجمل حديثك :

(طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى سبع مرات لمن لم يرنى وآمن بى) .

ونحن لم نرك يارسول الله ولكننا آمنا بك وأحببناك .

والله ندعو دائما أن يجعلنا من المتبعين لسنتك ، السائرين على نهجك السالكين على دربك .

وقد استأذنت قبل أن ألج رحاب سيرتك الطاهرة .

وأجد من واجبى أن أستأذن مرة أخرى وأنا أقطع هذا الحديث الروحى مع سيد الأنام :

وأملى رضاك ، ورجائى شفاعتك .

وسيظل الحب مركبنا إليك .

والشوق دربنا إلى رحابك :

الفهرس

كلمة الإشراف

عزيزى القارىء

أياما معدودة ونستقبل الشهر المبارك الذى تشرف بمولد سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليه وفى الأمواج الأولى من قبس النور الربانى الذى كرم الله به نبيه الحبيب نعيش هذه الأيام الصادقة والمناسبة الكريمة فى رحاب سيرته صلى الله عليه وسلم نتأمل ونتذكر ونعتبر لكل ماجرى ودار من آيات خالدات وأحداث غيرت مجرى التاريخ الإنسانى بفضل هذا النبي العظيم ورسولها الأمين .

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، و بشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » .

" صدق الله العظيم "

طلعت غنام



المؤلف فى سطور

— من مواليد الدلجمون مركز كفر الزيات محافظة الغربيـة عام ١٩٣٠ م .

— حصل على بكالوريوس العلوم العسكرية عام ١٩٥٠ م .

— عمل بالقوات المسلحة ، وتدرج فى كثير من المناصب بها وعمل فى كل من سوريا واليمن .

— يعمل الآن مديرا بالجهاز المركزى للتعبئة العـامة والإحصاء .

— له كثير من المقالات فى الصحف والمجلات الأدبية والإسلامية .

— من مؤلفاته :

١ — (وعد الله ليس لبنى إسرائيل .) .

٢ — (دين وثورة) — تحت الطبع .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول

رئيس مجلس الإدارة

علي سلطان علي

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٩٦ / ١٩٧٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٦٨١/١٩٧٣ ١٣٠٠٢